رواء

مجلة فكرية دورية
تصدر عن هيئة الشام الإسلامية

- النظرية السياسية الإسلامية مقارنةً بالنظريات السياسية الحضارية
- الاجتهاد الجماعي.. مجلس الإفتاء السوري نموذجاً
- مسؤولية الأب في رعاية إيمان الأبناء

الإبراهيمية هي الإسلام



العدد الخامس
ربيع الأول ١٤٤٢ هـ
أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٢٠

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

- **تأصيل**: مواد تتناول تأصيل المنهج، وتقعيده ووضع ضوابطه وأسسه بصورة بنائية.
- **حضارة وفكر**: مواد تتناول قضايا حضارية وفكرية.
- **دعوة**: مواد تتناول فقه وأصول الدعوة، والأساليب والوسائل والتجارب الدعوية.
- **نظرات نقدية**: لتصحيح المفاهيم والتصورات.
- **قضايا معاصرة**: مواد تتناول السياسة الشرعية ومآلات الأمور، إضافة إلى تطبيقات المصالح والمفاسد على القضايا المستجدة.
- **تزكية**: في التربية والتزكية والأخلاق.
- **قراءات**: قراءات في الكتب والرسائل العلمية ونقدها وإظهار محاسنها.

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة
وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة
ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

فهرس الموضوعات

رَواء

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر مؤقتًا
كل شهرين عن
هيئة الشام الإسلامية

هيئة الشام الإسلامية

رئيس مجلس الإدارة
د. خير الله طالب

أسرة التحرير

رئيس التحرير
د. عماد الدين خيتي

مدير التحرير
أ. ياسر المقداد

سكرتير التحرير
أ. محمود درمش

التصميم والإخراج الفني
موشنات
motionat
Creative Agency
motionat.com

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org

rawaamagazine



الإبراهيمية هي الإسلام

تردَّد على ألسنة بعض السَّاسة في الآونة الأخيرة تسمية «اتفاقيات السلام» و«التطبيع» مع الكيان الصهيوني المحتلّ بـ **(الاتفاق الإبراهيمي)**، ويزعمون أنّ هذه التسمية جاءت تيمُّنًا بـنبي الله إبراهيم عليه السلام «أبو الديانات الكبيرة كلها»[١]، فما حقيقة هذه الدعوى؟ وما هو حظّها من الصحة؟ ولماذا يوردونها في مثل هذه الأحداث؟!

يذكر عددٌ من الباحثين أنَّ الطرح الحديث لفكرة التقاء ما يسمى بـ «الديانات الإبراهيمية» على أسس مشتركة يعود إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية[٢]، لكنها برزت في الفضاء الثقافي والإعلامي العالمي مع مطلع الألفية الثالثة، حيث قامت بعض الجامعات الأمريكية بطرح أبحاث ودراسات تتناول هذه الفكرة باعتبارها فكرةً جامعة لمشتركات يمكن الحوار والتلاقي الثقافي حولها، ثم تبنّتها ودعت إليها جمعيات ومؤسسات ورموز حول العالم، وبدأ المصطلح يأخذ صداه على ألسُن الساسة وصنّاع القرار في العالم[٣]، حتى أُنشئت لها وحدة مخصصة في وزارة الخارجية الأمريكية عام ٢٠١٣م.

وقد كانت الفكرة في بداياتها حول إمكانية تلاقي الأديان (اليهودية والنصرانية والإسلام) على أسس قيمية مشتركة، ثم تطوَّر الحديث ليصل إلى تقبُّل أتباع الأديان بعضهم لبعض، وتطور فيما بعد ليكون خطابًا دينيًا يُقصد منه تمرير أهداف سياسية في المنطقة.

أبعاد وأهدف دعوى «الإبراهيمية»:

هذه الدعوى لا يراد بها -كما يشاع- نزعُ فتيل الخلاف بين أتباع الديانات الثلاث، أو إحلال السلام فيما بينهم؛ فإنَّ ذلك لا يكون بالتَّلفيق والخلط بين الحقِّ والباطل وتزييف الوعي، بل بإعادة الحقوق والمقدسات المسلوبة، وكفّ اليد عن العبث بدين المسلمين وبلادهم وثرواتهم ومقدَّراتهم، وعندها

(١) جاء ذلك على لسان الرئيس الأمريكي دونالد ترامب، وعلى لسان السفير الأمريكي لدى الكيان الصهيوني ديفيد فريدمان.

(٢) في المدة بين ١٩٦٢م- ١٩٦٥م صدرت وثائق من الفاتيكان تحدثت عن التراث المشترك للديانات الثلاث (اليهودية والنصرانية والإسلام)، واستخدمت النبي إبراهيم عليه السلام مصدرًا رئيسيًا لمحاولة التقارب الديني. المصدر: مقالة الدبلوماسية الروحية مسار جديد ومخاطر كامنة وسياسات بديلة لصانع القرار، للدكتورة هبة جمال الدين، مجلة مستقبل التربية العربية، العدد (١١٦) شتاء ٢٠١٩م.

(٣) قام الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما بتهنئة العاهل السعودي بموسم الحج عام ١٤٣٢هـ، قائلاً: «إن الحج يذكر بالجذور الإبراهيمية المشتركة للأديان».

فقط يمكن الكلام عن التعايش كما ضمنه محمد ﷺ لليهود في المدينة في أول مقامه بها، وكما ضمنه الفاروق عمر رضي الله عنه لنصارى بيت المقدس عند فتحه لها.

> هذه الدعوى لا يراد بها -كما يشاع- نزعُ فتيل الخلاف بين أتباع الديانات الثلاث، أو إحلال السلام فيما بينهم؛ فإنَّ ذلك لا يكون بالتَّلفيق والخلط بين الحقِّ والباطل وتزييف الوعي، بل بإعادة الحقوق والمقدسات المسلوبة، وكفّ اليد عن العبث بدين المسلمين وبلادهم وثرواتهم ومقدَّراتهم

هذه الدعوى التي صدرت عن التحالف الصهيوصليبي في ظلِّ سيطرته على مقاليد السياسة والاقتصاد والقوّة في العالم، وبترويجه ودعمه لها بمختلف الإمكانات، لا تستهدف أتباع الديانتين اليهودية والمسيحية، بل إنّهم لا يكادون يَسمَعون بها، ولا تُؤثر فيهم ألبتة، ولو أثَّرت فإنّها لن تؤدي إلى اقترابهم من الإسلام خطوة واحدة، لأنّها تقدمه بصورة مشوهة جدًا!!

لكن نشاطها الأكبر -إن لم يكن الحصري- هو في التأثير على المسلمين بزعزعة عقيدتهم، ومسلَّمات دينهم الذي يؤمنون به، في وقتٍ ضعفِهم وتفرّق دُولهم، وتسلُّط الأعداء عليهم من كلِّ جانب، لإيهامهم بأنّه لا مخرج أمامَهم إلا بـ «الاستسلام» والتفاهم مع أعدائهم الذين احتلوا بلادهم ونهبوا خيراتهم وزرعوا الخلافات بينهم وقتلوهم وشرَّدوهم، وفرضوا عليهم ثقافاتهم الهزيلة وقيمهم المنحرفة.

وإن صحَّ ما يتردَّد بين الباحثين والمطّلعين أنَّ مِن أهداف هذه الدعوى تأسيس دين موحَّد ملفق من الديانات الثلاث، وكتاب موحَّدٍ ملفق من التوراة والإنجيل والقرآن، ودور عبادة موحَّدة يصلي فيها الجميع صلاة واحدة، يتضح وقتها حجم الجناية الثقافية التي يسعون خلفها والتشويه الذي يجترحونه!!(١).

أهداف الدعوة إلى «الإبراهيمية»:

جميع ما سبق بات واضحًا وملموسًا لدى المطلعين، ويهدف إلى تحقيق عدد من الأهداف نفصلها كما يأتي:

أ- في الجانب الديني:

١. وصف أتباع الديانات الأخرى بالمؤمنين رغم كفرهم بالله تعالى ورسوله محمد ﷺ وعدم دخولهم بالإسلام، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

٢. منع الدعوة إلى الإسلام بزعم أنّ الجميع مؤمنون، وأنّه يجب احترام جميع الأديان، ونحو ذلك، في حين أنّ هذه الأديان محرّفة ومليئة بعقائد الشرك بالله التي حاربها إبراهيم عليه السلام وكان أمّة وحده ببُعده عنها وإخلاصه التوحيد لله عزّ وجلّ، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

٣. تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي طبّقها إبراهيم عليه السلام بطرق متعددة بدءًا بالدعوة باللسان والمبارزة بالحجّة والبيان وانتهاءً بتكسير الأصنام بيده.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ... إلى قوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٨].

٤. تمييع حدود الإسلام وتضييع معالمه، وخلطه بباطل الديانات الأخرى.

٥. تضييع معالم الولاء والبراء التي كانت أهم معالم دعوة إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤].

---

(١) للتوسع حول الموضوع يمكن الاطلاع على أبحاث ولقاءات الدكتورة هبة جمال الدين، ومن أهمها لقاء مطول مع الصحفي سيد جبيل على موقع يوتيوب.



النشاط الأكبر لهذه الدعوى يكمن في التأثير على المسلمين بزعزعة عقيدتهم ومسلَّمات دينهم الذي يؤمنون به في وقتِ ضعفِهم وتفرّقِ دُولهم، وتسلُّط الأعداء عليهم من كلِّ جانب؛ لإيهامهم بأنَّه لا مخرج أمامَهم إلا بـ «الاستسلام» والتفاهم مع أعدائهم الذين احتلوا بلادهم ونهبوا خيراتهم

ب- في الجانب الثقافي:

١. زعزعة المسلَّمات لدى المسلمين وتشكيكهم في دينهم وثوابتهم، بترك الكثير من العقائد التي تخالف الأديان الأخرى والاقتصار على بعض القيم المشتركة التي لا تكفي وحدها للبقاء في دائرة الإسلام.

٢. إزالة ما يشير إلى عداوة اليهود والنصارى للمسلمين من المناهج الدراسية والمحتوى الثقافي والإعلامي، والدعوة إلى التعامي عن الواقع بجميع أبعاده.

٣. صناعة حالة من السذاجة الثقافية لدى المسلمين تترافق مع حال الضعف الذي تعيشه الأمة، بجعلهم يتنازلون عن الكثير من قيمهم دون مقابل، والمسارعة إلى «التصالح» مع الأعداء وفتح البلاد لهم.

٤. زرع الفتنة والتنازع والعداوة بين المسلمين، من خلال جعلهم فريقين: فريق مؤيد للدعوة «الإبراهيمية» مدعوم من جهات عديدة، وفريق رافض لها متمسك بدينه.

٥. فتح الأبواب على مصراعيها للمنتجات الثقافية من الديانات الأخرى، ولو كانت تؤدي إلى خروج المسلم من دينه؛ بحجّة تلاقي الثقافات والأديان تحت المظلة الإبراهيمية.

ج- في الجانب السياسي:

١. تجريم مقاومة المحتل واعتباره نوعًا من الإرهاب والاعتداء.

٢. تقبُّل الاحتلال الصهيوني لبلاد المسلمين، والتنازل عن المقدسات الإسلامية بذريعة كونها لا تزال تحت المظلة «الإبراهيمية».

٣. فتح المجال للتطبيع السياسي والثقافي مع المحتلين، وإهداؤهم -مجانًا- ما عجزوا عن الحصول عليه بقوة السلاح.

٤. التهيئة للتنازل المستقبلي عن مناطق أوسع من الشرق الأوسط وتدويلها بحجة أنّها مناطق

إبراهيمية، ليست ملكًا لأحد، تشمل مناطق في العراق وتركيا وبلاد الشام ومصر والجزيرة العربية بما فيها مكة والمدينة.

أساليب نشر وتسويق الطرح «الإبراهيمي» العالمي:

الطرح «الإبراهيمي» العالمي اليوم ظاهرة ملموسة وصوت مسموع، وله العديد من الأساليب التي تهدف لإحداث تغيير في الخارطة الثقافية والسياسية في العالم الإسلامي، وعلى وجه التحديد منطقة الشرق الأوسط التي كانت مهدًا لرسالة إبراهيم عليه السلام ورحلاته، وموطنًا للديانات الثلاث.

ومن الأساليب المتّبعة لنشر هذا الطرح:

- الدعوة لما يسمونه زورًا بـ «الحوار بين الأديان»(1)، والزعم بأنّ المشتركات بين الديانات الثلاث يمكن أن تصنع السلام بين أتباع هذه الأديان.
- تكرار شعارات ومبادئ هذه الدعوى في الخطابات السياسية والإعلامية، وإقامة المؤتمرات والمنتديات على أساسها.
- تأسيس منظمات واتحادات وجمعيات تقوم عليها رموزٌ معروفةٌ ذات شعبية واسعة تتبنّى هذه الدعوى وتقوم بنشرها ونشر كتب ومقالات عنها.
- إقامة مؤسسات دينية ودور عبادة متعدِّدة أو موحدة، بحيث يقيم الجميع عباداتهم في أماكن متجاورة أو في حيز واحد.
- إقامة صلوات مشتركة لأتباع الديانات الثلاث، أو احتفالات يخلط فيها الأذان بالترانيم المسيحية واليهودية، تحت رعاية شخصيات سياسية ودينية عالية المستوى في عدة بلدان.
- إقامة مبادرات ومشاريع إنسانية مشتركة.

> **من أهداف «الإبراهيمية المزعومة»: تقبُّل الاحتلال الصهيوني لبلاد المسلمين، والتنازل عن المقدسات الإسلامية بذريعة كونها لا تزال تحت المظلة «الإبراهيمية»، وتجريم مقاومة المحتل واعتباره نوعًا من الإرهاب والاعتداء، وفتح المجال للتطبيع السياسي والثقافي مع المحتلين، وإهداؤهم -مجانًا- ما عجزوا عن الحصول عليه بقوة السلاح.**

- وإلى جانب ذلك كله تقوم بعض الشخصيات الدينية المعروفة بالتهوين من الخلاف بين الديانات الثلاث، والتصريح بحُب الديانات الأخرى، ليتطوَّر حديث بعضهم إلى القول بأنها كلَّها طرقٌ موصلة إلى الله، وبأنّ المشكلة في التسييس الذي ينتج الكراهية والعداوات!!

موقف الإسلام من هذه الدعوى:

يتمثل موقف الإسلام من هذه الدعوى في أمرين:

الأول: وجوب دخول الجميع في دين الإسلام:

فقد أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الكتب لهداية البشرية، وكانت دعوتهم متفقةً على توحيد الله وإفراده بالعبادة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ومتَّفقةً في أصول الدين الكبرى من العقائد، والعبادات كالصلاة والصيام والحج، والدعوة للتمسُّك بالأخلاق الفاضلة وترك الرذائل، مع اختلاف في تفاصيلها بما يتوافق مع حال كلِّ قوم، وزمانهم ومكانهم، فكان لكل نبي شريعةٌ خاصةٌ به، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] وهذا مصداق قوله ﷺ: (الأنبياءُ إخوةٌ لِعَلَّات، أمهاتهم شتَّى، ودينهم واحد)(2).

وهذا هو الإسلام العام الذي كان عليه جميع الأنبياء عليهم السلام، قال نوح عليه السلام: ﴿فَإِنْ

(١) الحوار المبني على أسس وقواعد صحيحة وأهداف شرعية لا مانع منه، بل كان المسلمون على مرّ التاريخ هم المبادرون به امتثالًا للنصوص الشرعية الحاثة على ذلك، أما هذه الدعوات المشبوهة والتي تسمى تارة بالحوار، وتارة بالتقريب وغيرها؛ فلها أهداف ووسائل مختلفة غير مشروعة. للاستزادة ينظر على سبيل المثال: دعوة التقريب بين الأديان، للأستاذ أحمد القاضي، والأبعاد السياسية للحوار بين الأديان، سامر أبوريان.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، قال الحافظ ابن حجر: «العلّات بفتح المهملة: الضرائر،... وأولاد العلّات: الإخوة من الأب». (فتح الباري: ٤٨٩/٦). فقد شبّه الأنبياءَ بالإخوة لأب، أمهاتهم مختلفة ولكنّ أباهم واحد، وهكذا الأنبياء: شرائعهم مختلفة لكنّ دينهم واحد، وهو التوحيد وأصول العقائد الكبرى. قال ابن كثير: «القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم» تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١٧٨/٧)، وقال ابن العربي: «ولا خلاف أن الله تعالى لم يُغاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح، وإنَّما خالف بينها في الفروع بحسب ما علمه سبحانه» أحكام القرآن، لابن العربي (١٢٣/٤).

بعض المظاهر التي تطالعنا بين الفينة والأخرى مثل إقامة دور عبادة متعددة أو موحدة، أو إقامة صلوات مشتركة لأتباع الديانات الثلاث، أو احتفالات يخلط فيها الأذان بالترانيم المسيحية واليهودية، أو إقامة مبادرات ومشاريع إنسانية مشتركة ليست إلا حلقات في سلسلة نشر دعوى «الإبراهيمية» وترسيخها

تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، وقال سحرة فرعون بعد أن آمنوا بالله: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقال عن فرعون: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، وقال الحواريون: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال عن التوراة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤].

حتى جاء محمد ﷺ خاتم الأنبياء فكانت شريعته هي الأكمل بين الشرائع، وهي المكمِّلة لشرائع الأنبياء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: (مَثلي ومَثَل الأنبياء من قبلي، كمثلِ رجلٍ بنى بنيانًا فأحسنه وأجْمَله، إلا موضعَ لَبِنَةٍ من زاويةٍ من زواياه، فجعل الناس يطُوفون به، ويَعجَبون له، ويقولون: هلَّا وَضعت هذه اللَّبِنة؟ قال: فأنا اللَّبنة وأنا خاتَم النبيين)(١).

وقد سمَّاها الله تعالى الإسلام، فكان دينه الإسلام وشريعته الإسلام، ويترتَّب على هذا:

١- أنَّ الإسلام هو الدين الحقُّ الكامل الذي لا يقبل الله مِن الناس سواه، وأنَّه يجب عليهم جميعًا الدخول فيه، قال ﷺ: (والذي نَفسُ محمدٍ بيده، لا يَسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌ ولا نصرانيٌ، ثم يموتُ ولم يؤمن بالذي أُرسلت به، إلا كانَ من أصحاب النار)(٢).

قال النووي: «أي مَنِ هو موجود في زمني وبعدي إلى يوم القيامة فكلُّهم يجُب عليهم الدخول في طاعته وإنَّما ذكر اليهودي والنصراني تنبيهًا على مَن سواهما وذلك لأن اليهود النصارى لهم كتاب فإذا كان هذا شأنهم مع أنَّ لهم كتابًا، فغيرهم ممن لا كتاب له أولى»(٣).

وعلى ضوء ما سبق يمكن فهم الحصر الوارد في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

٢- هيمنة القرآن على ما قبله مِن الكتب، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ

الإسلامُ هو الدين الحقُّ الكاملُ الذي لا يقبل الله مِن الناس سواه، ويجبُ عليهم جميعًا الدخول فيه، والقرآن مهيمنٌ على ما قبله مِن الكتب وجامع لمحاسنها وشاهد عليها وناسخ لها

يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، قال الطبري: «مُصدّق لما كان قبله مِن كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ورسله، ومحقق ما جاءت به رُسل الله مِن عنده. لأنَّ مُنزل جميع ذلك واحدٌ، فلا يكون فيه اختلاف، ولو كانَ مِن عند غيره كان فيه اختلافٌ كثير»(٤).

وقال ابن كثير: «جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها؛ حيث جمع فيه محاسن ما قبله مِن الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدًا، وأمينًا، وحاكمًا عليها كلها، وتكفل تعالى حفظَه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]»(٥).

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٥) ومسلم (٢٢٨٦) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (١٥٣).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨٨/٢).

(٤) جامع البيان، للطبري (١٨٠/٥).

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١١٦/٣).

أساليب ومظاهر نشر دعوى "الإبراهيمية"

١ دعوات "الحوار بين الأديان"

٢ تكرار شعارات الدعوى في الخطابات السياسية

٣ تأسيس منظمات واتحادات وجمعيات تتبنّى الدعوى

٤ إنشاء مؤسسات دينية ودور عبادة متعدّدة أو موحّدة

٥ إقامة فعاليات دينية مشتركة لأتباع الديانات الثلاث

٦ إطلاق مبادرات ومشاريع إنسانية مشتركة

٧ تهوين الشخصيات الدينية من الخلاف بين الديانات الثلاث

> **نسبة شيءٍ من دين اليهود أو النصارى لإبراهيم عليه السلام، أو زعم «وحدة الأديان» أو «أخوّتها»، أو الزعم بأنَّ جميع هذه الأديان «طرق» توصِل إلى الله تعالى، تحت مسمّى «الديانة الإبراهيمية» هو ضلال مبين، ومِن أعظم الفرى في دين الله، وتكذيبٌ لآياته الصريحة**

الثاني: حقيقة دين إبراهيم الخليل عليه السلام:

خصَّ الله تعالى إبراهيمَ عليه السلام بأن جعل النبوة في عَقِبِهِ حصرًا، ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فجاءت النبوة في أبنائه مِن بعده: إسماعيل وإسحاق، ثم غلبت في نسل يعقوب بن إسحاق عليهم السلام، وهو المسمّى بإسرائيل، والذي نسبت له بنو إسرائيل فيما بعد، واستمرت الأنبياء تُبعث فيهم وتسوسهم، فلم يُحسِنوا اتِّباعهم، بل كذَّبوهم، وقتلوا بعضهم، وحرَّفوا كُتُبهم وضيَّعوها.

فلما بُعث محمد ﷺ من نسل إسماعيل كفروا به حسدًا وظلمًا وبغيًا، وزعموا أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديًا أو نصرانيًا، فأنزل الله تعالى قول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥].

فلم تُبقِ لهم آياتُ القرآن حظًا في إبراهيم عليه السلام، وقطعت الصلة بينهم وبينه، وجعلت الرابطة مع المسلمين وحدَهم، قال السعدي: «أن الله تعالى برَّأ خليلَه مِن اليهود والنصارى والمشركين، وجعله حنيفًا مسلمًا، وجعل أولى الناس به مَن آمن به مِن أمته، وهذا النبيَّ، وهو محمدٌ صلى الله على وسلم ومَن آمن معه، فهم الذين اتبعوه وهم أولى به مِن غيرهم، والله تعالى وليُّهم وناصرهم ومؤيدهم، وأما مَن نبذ ملته وراء ظهره كاليهود والنصارى والمشركين، فليسوا مِن إبراهيم وليس منهم، ولا ينفعهم مجرد الانتساب الخالي من الصواب»[1].

إنَّ دين إبراهيم هو الحنيفية الواضحة التي تعني -كما سبق بيانه- العبوديةَ لله تعالى في كافة مناحي الحياة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، والخضوع له واتباع أوامره، واجتناب نواهيه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحلِّي بالأخلاق الفاضلة.

أمَّا نسبة شيءٍ من دين اليهود أو النصارى لإبراهيم عليه السلام، أو زعم «وحدة الأديان» أو «أخوّتها»، أو الزعم بأنَّ جميع هذه الأديان «طرق» توصِل إلى الله تعالى، تحت مسمّى «الديانة الإبراهيمية» فهو ضلال مبين، ومِن أعظم الفرى في دين الله، وتكذيبٌ لآياته الصريحة، وكفى بذلك معاندة!

قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (١٣٤).



مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦-١٤١].

فقد حصر القرآنُ طريقَ الهداية بطريق واحد، وهو الإيمان بمثل ما آمن به جميعُ الأنبياء من التوحيد، وما كانوا عليه من دين الإسلام، وما سوى ذلك لبس وضلال، قال جل وعلا: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

قال قتادة رحمه الله: «لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام، إنَّ دين الله الإسلام، واليهودية والنصرانية بدعةٌ ليست من الله»[١]. يشير بذلك إلى ما أصابهما من التحريف والتبديل.

وتناولَ ابن تيمية رحمه الله هذه البدعةَ بقوله: «قول القائل: المعبود واحد وإن كانت الطرق مختلفة، ونحو ذلك من الأقوال والأفعال التي تتضمن إما كون الشريعة النصرانية واليهودية المبدَّلتَين المنسوختَين موصلةً إلى الله؛ وإما

«لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام، إنَّ دين الله الإسلام، واليهودية والنصرانية بدعةٌ ليست من الله»
قتادة بن دعامة السدوسي - يشير بذلك إلى ما أصابهما من التحريف والتبديل

استحسان بعض ما فيها مما يخالف دين الله، أو التدين بذلك، أو غير ذلك مما هو كفر بالله وبرسوله، وبالقرآن وبالإسلام، بلا خلاف بين الأمة الوسط في ذلك، وأصل ذلك المشابهة والمشاركة»[٢].

وقال القاضي عياض رحمه الله: «ولهذا نُكفر مَن لم يُكفر مَن دان بغير ملة المسلمين مِن الملل، أو وقف فيهم، أو شك، أو صحَّحَ مذهبهم، وإن أظهر مع ذلك الإسلامَ واعتقده واعتقد إبطال كل مذهب سواه، فهو كافر بإظهاره ما أظهر مِن خلاف ذلك»[٣].

هذا هو دين إبراهيم عليه السلام، وهذه هي ملته وطريقته ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦]، فمَن كان على هديه فهو منه، ومَن انحرف عن ملته أو غيَّر أو بدَّل فقد سَفِهَ نفسَه ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠] وإبراهيمُ ومحمدٌ ﷺ وسائرُ الأنبياء منه براء!

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٩٨/١).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية (٥٤٠/١).
(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض (٦١٠/٢).



ثمرات العلم بمقاصد الشريعة

د. معن عبد القادر(*)

للشريعة مقاصدُ وغايات، ولأحكامها حِكمٌ وأسرار، وقد راعت في ذلك كلِّه مصالحَ العِباد في الدارين. وفي تعلُّم المقاصد ثمراتٌ عمليةٌ وعِلمية. فمِن ثمراتها العَمَلية التي يجب أن يُعنى بها كلُّ مسلم: زيادة اليقين، والإقبالُ على العمل، والترقّي في التديُّن، والتمكُّن من الدعوة إلى الإسلام وردُّ الشبهات عنه. أمّا ثمراتُها العِلمية فتظهرُ في أثر العلم بالمقاصد على الاستدلالِ واستنباط الأحكام في حالي غياب النص وحضوره، وهذا شأنُ أهل العلم.

لمصطلح مقاصد الشريعة عدة إطلاقات:

١. يُطلق على المعاني أو الغايات العامة والجامعة التي جاء بها الإسلام، كعبادة الله، وتهذيب الأخلاق، والإصلاح، والتوحيد، ونحو ذلك.

٢. ويُطلق على الحِكَم وأسرار التشريع، فيقال: شُرعت الصلاة لتكون صلة بين العبد وربه، وشرع الوضوء للتهيؤ للوقوف بين يدي الله، والمقصد من الإحرام من الميقات هو الاستعداد للدخول إلى حِمَى الملِك، والتجرّد من المخيط تذكير بالكفن والموت، ونحو ذلك.

٣. ويُطلق على «مصالح العباد المتعلقة بالخطاب الشرعي التي يُراد من المكلفين السعيُ لتحقيقها»، وهو الذي يدور عليه حديث المتأخرين غالبًا.

والمراد من المعنى الثالث: هل الغرض من أحكام الشرع هو التكليف والابتلاء في الدنيا ثم الجزاء في الآخرة بالثواب والعقاب فحسب، أم يراد بها -بالإضافة إلى التكليف- مراعاةُ مصالح العباد في الدنيا؟

لا شكَّ أنّ الثاني هو الصحيح، وأنَّ الشريعة راعت مصالحَ العباد في تشريعاتها، وهذا ظاهرٌ بالنظر إلى أصل الرسالة، فالله عز وجل يقول: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]. فاتِّباع الإسلام فيه هداية في الدنيا، والإعراضُ عنه فيه ضنك في الدنيا، عدا ما يكون في الآخرة من الثواب أو العقاب.

(*) أكاديمي وكاتب في قضايا التربية والفكر.

> يُطلق مصطلح «المقاصد الشرعية» على الحِكَم وأسرار التشريع، ولا يلزم شمول المصطلح لمصالح العباد؛ فالشريعة راعت هذه المصالح في تشريعاتها؛ فاتِّباع الإسلام فيه هداية في الدنيا، والإعراضُ عنه فيه ضنك في الدنيا، عدا ما يكون في الآخرة من الثواب أو العقاب

وهذا الأمر كما هو ظاهر في أصل إرسال الرسل، فهو ظاهرٌ كذلك في أركان الدين. قال تعالى عن الصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال عن الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال عن الصوم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقال في الحج: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]، وإذا نظرنا إلى الأحكام الجزئية نجد أن هذا الأمر مطَّردٌ فيها كذلك.

وحين لا تكون الأحكام معقولة المعنى فإنَّها تسمى «أحكامًا تعبدية»؛ أي إنّ الحكمة من تشريعها: التعبّد والتسليم لله تعالى والامتثال فحسب، لأنَّه لا يظهر فيها إلا معنى التكليف.

والأحكام التعبُّدية قليلة بالنسبة إلى الأحكام المعلَّلة التي نُدرك الحكمة من تشريعها، جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: «تنقسم مسائل الفقه من حيث إدراك حكمة التشريع فيه أو عدم إدراكها إلى قسمين، أولهما: أحكامٌ معقولة المعنى، وقد تسمى أحكامًا معلَّلة، وهي تلك الأحكام التي تُدرَك حكمةُ تشريعها، إمّا للتنصيص على هذه الحكمة، أو يُسر استنباطها. وهذه المسائل هي الأكثر فيما شرع الله سبحانه وتعالى... وذلك كتشريع الصلاة والزكاة والصيام والحج في الجملة، وكتشريع إيجاب المهر في النكاح، والعدَّة في الطلاق والوفاة، ووجوب النفقة للزوجة والأولاد والأقارب، وكتشريع الطلاق عندما تتعقد الحياة الزوجية... إلى آلاف المسائل الفقهية.

وثانيهما: أحكامٌ تعبُّدية، وهي تلك الأحكام التي لا تُدرَك فيها المناسبة بين الفعل والحكم المرتَّب عليه، وذلك كعدد الصلوات وعدد الركعات وكأكثر أعمال الحج. ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنَّ هذه الأحكام قليلة بالنسبة إلى الأحكام المعقولة المعنى»[١].

وفي هذا الموضع أمران يجدُر التنبيه عليهما، الأول: أنَّ الحِكَم والمصالح من الأحكام معقولة المعنى قد تظهر لبعض الناس ولا تظهر لغيرهم، فالعمل بهذه الأحكام لا يتوقَّف على ظهور حكمتها، لكن لظهورها فوائد كما سيأتي، والثاني: أننا لا نحصُر الحِكم فيما ظهر لنا، بل قد يكون هناك غيرها وقد يكون ما هو أقوى منها، مما لا يظهر لنا أو يظهر بعد حين.

> قد تظهر الحِكَم والمصالح من الأحكام معقولة المعنى لبعض الأشخاص دون غيرهم، فالعمل بهذه الأحكام حينها لا يتوقَّف على ظهور حكمتها، كما أن الحِكم غير محصورة فيما ظهر منها، بل قد يكون هناك غيرها أو ما هو أقوى منها، مما لم يظهر، أو مما قد يظهر بعد حين

تقسيمات المقاصد:

يقسم العلماء مقاصد الشريعة باعتبار عموم التشريع وخصوصه إلى ثلاثة أقسام: **مقاصد كلية، وخاصة، وجزئية.**

أما **المقاصد الجزئية** فتتناول مصالح العباد في الأحكام التفصيلية، ولذلك فهي أوسع هذه الأقسام وأكثرها تفصيلًا. وأما **المقاصد الخاصة** فيقصد بها المقاصدُ المرعيّة في كل بابٍ من أبواب الفقه أو في كل مجال من مجالات الإسلام، فيقولون مثلًا: مقاصدُ الإسلام من العبادات كذا، ومقاصده من الجهاد كذا، ومقاصده من النكاح كذا، ولذلك فهي دون الأولى في التفصيل. ثم تأتي الدائرة الأكثر إجمالًا وهي التي تسمى **المقاصد الكلية**، ويطلق عليها أيضًا الضروريات أو الكليات الخمس.

فمن أمثلة المقاصد الجزئية قول النبي ﷺ: (إذا صلَّى أحدُكم للنَّاس فليُخفِّف؛ فإنَّ منهم الضعيفَ والسَّقيمَ والكبيرَ، وإذا صلَّى أحدُكم لِنفسه فليُطوِّل ما شاء)[٢]، فنص على مراعاة أحوال المأمومين بتخفيف الصلاة. وقوله ﷺ في الصوم: (يا معشرَ الشبابِ مَن استطاعَ منكم الباءَةَ فَليتزوَّج، ومن

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية (٤٩/١).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٣) ومسلم (٤٦٧)، واللفظ للبخاري.

لم يستطع فعليه بالصوم فإنَّه له وِجَاء)[١]، فبينّ أثر الصوم في الإعفاف، وقوله للرجل الذي أراد أن ينكح امرأة من الأنصار: (انظُر إليها، فإنَّه أحرى أن يُؤدَمَ بينَكما)[٢]، فشُرِع النظر للمخطوبة لدوام الألفة بين الزوجين.

والمقاصد الجزئية كثيرة جدًا، وتستعصي على الإحصاء، قال ابن القيّم رحمه الله: «والقرآنُ وسنة رسول الله مملوءان من تعليل الأحكام بالحِكم والمصالح، وتعليل الخلق بهما، والتنبيه على وجوه الحِكم التي لأجلها شرع تلك الإحكام، ولأجلها خلق تلك الأعيان، ولو كان هذا في القرآن والسنة في نحو مائة موضع أو مائتين لسُقناها، ولكنه يزيد على ألف موضع بطرق متنوعة»[٣].

> **دلَّ استقراء النصوص الشرعية على الضروريات الخمسة، إذ إنَّ أحكام الشريعة تدور على المحافظة على هذه الكليات وتثبيتها وصيانتها وحفظها، ولها شواهد عامة تدلُّ عليها وإن لم تدل عليها نصوص خاصة**

أما المقاصد الخاصة فمثل قولنا: شُرع الجهاد لحفظ الدين، ولإزالة العقبات أمام نشر الدعوة، ولحماية المستضعفين، وشرعت الحدود للزجر، ولحفظ الحقوق، ولصيانة المجتمع، ولتطهير المذنب، وهكذا.

وأما المقاصد الكلية -وهي الكليات الخمس أو الضروريات الخمس- فهي حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال.

وهذه الضروريات لم يأتِ بها نصٌّ خاصّ، وإنما وُضعت بالاستقراء، إذ دلَّ الاستقراء على أن أحكام الشريعة تدور على المحافظة على هذه الكليات وتثبيتها وصيانتها وحفظها، ولها شواهد عامة تدلُّ عليها.

وتصنّف المقاصد باعتبار قوَّة المصلحة المترتبة عليها إلى ثلاث مراتب: الضروريات والحاجيات والتحسينيات، فهذه الثلاثة هي مراتبُ للأحكام من حيث محافظتها على الكليات الخمس. ويمكن للقارئ أن يرجع إلى تعريفاتها وأمثلتها في مظانها من كتب أهل العلم[٤].

ثمرة علم مقاصد الشريعة:

يمكن أن نتلمَّس ثمرة العلم بالمقاصد على خمسة أصعدة:

١. الأول: زيادة اليقين.
٢. الثاني: الإقبال على العمل.
٣. الثالث: ترقّي التدين[٥].
٤. الرابع: الدعوة وكشف الشبهات.
٥. الخامس: الفقه والاستدلال.

أما ثمرة العلم بالمقاصد على صعيد زيادة اليقين، فكما أنَّ التدبُّر في حكمة الله وإتقانه في خلق الكون يُورث اليقين، كالتفكُّر في رفع السماوات بغير عمد، وخلق الشمس والقمر، وغيرها من المخلوقات، فكذلك التفكُّر في المقاصد يورث اليقين بصحة هذا الدين، والاعتزاز بالانتساب إليه، فالله حكيم في أمره كما هو حكيم في خلقه ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾. قال ابن القيم رحمه الله: «إذا كان الله سبحانه قد أتقن خلقه غاية الإتقان، وأحكمه غاية الإحكام، فلأن يكون أمره في غاية الإتقان والإحكام أولى وأحرى، ومن لم يعرف ذلك مُفصّلًا، لم يَسَعهُ أن ينكره مجملا»[٦]. فمن تأمل مقاصد التشريع في الجهاد والنكاح والمعاملات المالية والمواريث والحدود وغيرها، ظهرت له عظمةُ هذا الدين، وأنه لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

وأما الإقبال على العمل، فإنَّ العلمَ بالمقاصد يولّد همة ونشاطًا، وسرعة في الامتثال للأمر، وإذا وجد العامل في العمل شيئًا من المشقَّة صبر عليها فإنَّه «من عرف ما قصَد هان عليه ما وَجَد»، كما يعينه ذلك على المداومة على العمل والاستقامة فيه،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠).
(٢) أخرجه الترمذي (١٠٨٧) والنسائي (٣٢٣٥).
(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٢٢/٢).
(٤) ينظر مثلاً: الموافقات، للشاطبي (١٧/٢).
(٥) مصطلح جميل معبر استعمله د. الريسوني في كتابه مقاصد المقاصد.
(٦) إعلام الموقعين، لابن القيم (٣٨٨/١).

بينما تجد من غابت عنه المقاصد عرضة للتلكؤ والسآمة والضجر من الأعمال ثم الانقطاع عنها.

فالزكاة مثلًا، قال الله فيها: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. فهي للمزكّي طهرة لنفسه وماله، وللفقير إعانة ومواساة، فمن علم ذلك فسيؤتيها راغبًا، ومن خفيت عليه فقد تُسَوِّلُ له نفسُه أن يحتال عليها ويؤخرها، أو يتلاعب في أنصبتها ومقاديرها، أو يحتال لإسقاطها بشتى الحيل، فإذا اضطر إلى إخراجها أخرجها من رديء ماله، ثم لعله يتحسر بعد إخراجها.

> **إذا علم المرء مُراد الشريعة من عملٍ ما؛ فإنَّه يحرص على أن يُوافقه ويجتهد لتحقيقه، وحيثما وَجدَ خللًا في أداء الأعمال فليبحث عن الخلل في فهم المقاصد أو استحضارها؛ إذ الجهل بمقاصد الأحكام -أو عدم استحضارها- يُنتج صُورًا مشوّهةً ومسيئةً من التديُّن**

وأما على صعيد ترقي التدين: فإنَّ المرءَ إذا علم مُراد الشريعة من عملٍ ما؛ فإنَّه يحرص على أن يوافقه ويجتهد لتحقيقه، فإذا قرأ المصلي ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فإنَّه يجتهد في أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر؛ لأنَّ الله عز وجل شرع الصلاة لأجل ذلك، وعندما يسمع الصائم قول النبي ﷺ: «مَن لم يَدعْ قول الزُّورِ والعملَ به والجهلَ، فليسَ لله حاجَةٌ أن يَدَعَ طعامَهُ وشرابَه»[1]، فسيردعه هذا الحديث عن هذه المنكرات حتى يوافق مرادَ الشارع من الصوم.

وحيثما وَجدْت خللًا في أداء الأعمال فابحث عن الخلل في فهم المقاصد أو استحضارها. إذ الجهل بمقاصد الأحكام -أو عدم استحضارها- يُنتج صُورًا مشوّهةً ومسيئةً من التديُّن، وخذ مثلًا على ذلك: الحجاب، فقد شُرع سترًا للمرأة وعفّة لها وصيانة للمجتمع، فلو سَترت المرأة بدنها ولكن كان حجابُها زينةً في نفسه، أو تحجَّبت بثيابها لكنَّها تخضع في القول وتتميَّعُ في الكلام وتتكسّر في المشية، فهذه مُحجَّبة في الظاهر ولكنها خالفت مقاصد الشريعة من الحجاب، فكيف ينظرُ الناس إلى هذه المحجَّبة؟! وكم تُسيء إلى حجابها بهذا السلوك؟

والصوم في رمضان شَرعهُ الله للتقوى، فمن قضى يومَه نائمًا مُضيِّعًا للصلوات، وليلَه قائمًا على المُلهيات ومُضيِّعات الأوقات فضلًا عن المنكرات، ويسوء خلقه ويحتد طبعه بسبب الصيام، هل أورثه الصوم تقوى؟

وأما ثمرة العلم بالمقاصد على صعيد الدعوة، فإنَّ الله اشترط للدعوة البصيرة، فقال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]. واشترط لها الحكمة والموعظة الحسنة ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

والعلم بالمقاصد من البصيرة والحكمة التي أُمرنا بتحصيلها، فتفتح آفاقًا في الدعوة، وتُعين على إظهار محاسن الدين، وتفنيد الشبهات والافتراءات التي تفترى عليه، والذب عن الشريعة الغراء.

بل إنَّ العلم بمقاصد الشريعة يجعلُ المسلم في موقع الاعتزاز والفخر والثقة بالدين، وليس فقط في موقف رد الشبهات، وهذا مَلحظٌ مهمٌّ للدعاة إلى الله، ألا يُقابلوا الشبهات وهم في موقف الدفاع الضعيف، بل يهجُمون عليها هجومًا متسلِّحين باعتزازهم بهذا الدين.

فلو تحدَّثنا عن الشبهات التي تُثار حول مكانة المرأة في الإسلام، فلا نعتذر لتلك الأحكام اعتذارًا، بل نقذفُ بها بينَ أعين المجادلين، ونجعل ما يثيرونه من مسائل الحجاب والتعدُّد والقوامة والميراث، مادَّة لإبراز عظمة الإسلام ومحاسنه، وإنما نستطيع ذلك حين نشعر بالعزّة النابعة من إدراكنا لعِظَم مقاصد التشريعات المتعلقة بالمرأة.

ولْنمثل لذلك بأحدِ أكثر الموضوعات التي تُثار حولها الشبهات من قبل غير المسلمين، وفي بعض أوساط المسلمين -للأسف- ألا وهو تشريع تعدد الزوجات، إذ يعدُّونه ضربًا من الإهانة للمرأة! ويدفع «الطيِّبون» الشبهة باختراع شروطٍ وضوابطَ وقيودٍ ما جاءت بها الشريعة، وكأنَّهم يشعُرون أنهم لا يستطيعون دفع الشبهة إلا بذلك!

التعدُّد -من جهة المرأة التي يتهم الإسلام بإهانتها به- هو في الحقيقة خيارٌ لها زائد على

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٧)، والجهل يعني: السفاهة في الكلام.

تقسيم المقاصد

باعتبار عموم التشريع وخصوصه

مقاصد جزئية:
تتناول مصالح العباد في الأحكام التفصيلية

مقاصد خاصة:
المقاصدُ المرعيّة في كل باب من أبواب الفقه أو في كل مجال من مجالات الإسلام

مقاصد كلية:
وهي الضروريات أو الكليات الخمس

باعتبار قوّة المصلحة المترتبة عليها

الضروريات

الحاجيات

التحسينيات

الأصل، فالمرأة لها أن تتزوج ممَّن لا زوجة له فتكونَ زوجتَه الأولى، ولها أن تتزوج بمتزوِّج فتكون الثانيةَ أو الثالثةَ أو الرابعةَ إن شاءت، وهذا الخيار الثاني هو للنساء حصرًا، وبرغبتهنّ، أما الرجل فلا يجوز له أن يتزوَّج بامرأةٍ ذات زوج ولو أعجبه حُسنُها. فالتعدُّد إنما هو زيادة عن الأصل أعطاه الإسلام للمرأة، ثم هي بالخيار أن تأخذ به إن رأتْ في ذلك مصلحتها، أو ترغب عنه، وليس لأحد أن يجبرها عليه. ففي أي ملة بل في أي عقل يكون الخيار الإضافي إهانة!

ومن ثمرات العلم بمقاصد الشريعة على صعيد الدعوة تميُّز الأولويات، فبمعرفة الضروريات والتحسينيات والحاجيات تعلمُ بماذا تبدأ، وماذا تؤخِّر، وما الذي يستطيعه الناس الآن فتدعوهم إليه، وما الذي لا يستطيعونه الآن فتؤخِّره إلى حين الاستطاعة، وتتدرج معهم تحقيقًا للمصالح والمقاصد الشرعية.

وكم رأينا ممن غابت عنهم المقاصد فوقفوا عند حرفية النصوص، لا يُبالون بمآلات أقوالهم وأفعالهم ظنًا منهم أنهم متَّبعون للنص، يعتنون بمصلحةٍ ويفوِّتون أعظم منها، وينهون عن منكر ويتسبَّبون في أكبر منه، وينفِّرون الناس عن الإسلام وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعًا.

وأما على صعيد الفقه والاستدلال، فهذا مجالٌ رحبٌ لإعمال المقاصد، وعدّ العلماء العلمَ بالمقاصد من شروط الاجتهاد، وذكر الشاطبي أنَّ زلّة العالم أكثر ما تكون عند الغفلة عن اعتبار مقاصد الشارع في ذلك المعنى الذي اجتهد فيه.

إلا أنَّ هذا الصعيد ليس لعامّة الناس تقحُّمُه، بل هو شأنُ أهل العلم والمجتهدين، بخلاف الأصعدة الثلاثة الأولى، فالكلُّ محتاجٌ إليها، والكل مُخاطَب بها. ولعلَّ من أبرز أسباب الجدل والتنازع في ثمرة المقاصد على هذا الصعيد أنَّ أكثر من يتكلَّم فيه ليس من أهله، بل هو متهوِّكٌ فيه يقفو ما ليس له به علم. ولأهمية هذه الثمرة وخطورة الحديث فيها نُفرد لها الفقرة التالية.

> **العلم بمقاصد الشريعة يجعلُ المسلم في موقع الاعتزاز والفخر والثقة بالدين، وهذا مَلحظٌ مهمٌّ للدعاة إلى الله، ألا يُقابلوا الشبهات وهم في موقف الدفاع الضعيف، بل يهجُمون عليها هجومًا، متسلِّحين بالعلم والعزة**

إعمال المقاصد في الفقه والاستدلال مجالٌ رحبٌ، بل إن العلم بها من شروط الاجتهاد، إلا أنَّ هذا ليس لعامّة الناس، بل هو شأنُ أهل العلم والمجتهدين، ولعلَّ من أبرز أسباب الجدل في ثمرة المقاصد على هذا الصعيد أنَّ أكثر من يتكلَّم فيه ليس من أهله، يقفو ما ليس له به علم

مقاصد الشريعة واستنباط الأحكام:

يعرَّف الفقه بأنه «استنباط الأحكام الفرعية العملية من أدلتها التفصيلية»، فهل تصلحُ المقاصد دليلًا؟ بمعنى: هل يصحُّ أن يُقال هذا الأمر واجبٌ والدليل أنَّ من مقاصد الشريعة كذا وكذا، وهذا حرام لأنَّ من مقاصد الشريعة كذا، بغير الاعتماد على نصٍّ معيَّن في المسألة؟ وهل يمكن للمقاصد أن تتجاوز النصوص المعينة في المسألة؟ فتُعطى المسألةُ حكمًا على مقتضى المقاصد يخالف النص الوارد فيها؟!

لا شك أن للمقاصد أثرًا في استنباط الأحكام الفقهية، ولكن بضوابط. فما ضوابط إعمال المقاصد في استنباط الأحكام؟

المسائل التي يحتاج الناس إلى معرفة حكم الشرع فيها على نوعين:

١. مسائل ورد فيها نص بعينها.
٢. مسائل لم يرد فيها نص بعينها.

أما ما لم يرد فيه نص بعينه، فمجال إعمال المقاصد فيه رحب وواسع، ومن هذا الباب: الاستنباط بالقياس والمصالح المرسلة وسد الذرائع وغيرها. فالقياس هو: إلحاق فرع بأصل لعلة جامعة بينهما. ومن أمثلته ما جاء في آداب الإنصات لخطبة الجمعة: (مَن مَسَّ الحصَى فقد لغا)[1]، فلو أمسك أحدهم اليوم بالهاتف الجوال وأخذ يُقلِّب رسائل الواتس أب والتلغرام والإمامُ يخطب، فهذه المسألة لم يَرِد فيها نص، ولكن معنى العبث الموجود في الحصى موجود هنا بل أشدّ، فلا يمكن أن تقصد الشريعة منع العبث بالحصى، وتأذن بالعبث فيما هو أشدُّ منه.

ومن أمثلته أيضًا ما جاء في النهي لمنْ أَكَل ثومًا أو بصلًا أن يقرب المسجد، حتى لا يؤذي الملائكة ولا يؤذي أهل المسجد برائحتهما الخبيثة التي ينفِر منها الناس، فيُمسك عن أكلهما مدةً كافية قبل وقت الصلاة، أو يتعاهد فَمَه بما يُطهِّره من رائحتهما، وهذه العلَّة موجودةٌ في الدخان، فرائحته مؤذيةٌ لكثير من الناس، فاشتركا في العلَّة ولذلك اشتركا في الحكم.

وأما المصالح المرسلة: فهي مصلحةٌ مسكوتٌ عليها، أي إنَّ الشارع لم يأت باعتبارها ولا بإلغائها، ولا يوجد ما يُقاس عليه.

ومن أمثلة المصالح المرسلة: سكُّ العملات، إذ كانوا في السابق يتبادلون البضائع مباشرة، ثم ظهرت الحاجة لسَكِّ العملات لتكون وسيطًا لتبادل المنافع.

فهذه الأدلَّة (القياس والمصالح المرسلة وأشباهها) لها قواعد ضابطة مبسوطة في مباحثها، بحيث تصلح أن تكون مصادر للاستدلال واستنباط للأحكام الفقهية.

أما حين يكون في المسألة محلِّ البحث نصٌّ، فلا تخلو علاقةُ المقاصد بها من حالين:

الحال الأولى:

أنْ تؤيِّد المقاصدُ ما دلَّ عليه النص، وهذا لا إشكال فيه البتة، بل هو إعمال للمقاصد لإظهار محاسن الشريعة واتفاق الأحكام وانتظامها في مقاصد عامة.

مثلًا: وقّت الشارع في المسح على الخفين للمقيم يومًا وليلة وللمسافر ثلاثة أيام بلياليها، ومن مقاصد الشريعة التيسير، وأنَّ الأمر كلما زادت مشقَّته زاد التيسير فيه، فإباحة المسح ثلاثة أيام بلياليها للمسافر هو زيادة في التيسير مقابل المشقة الزائدة في السفر على الإقامة، فالمقاصدُ تؤيِّد النصَّ وتُظهر حكمته.

لا يمكن أن تتعارض المقاصدُ الصحيحة مع النصوص الثابتة الصريحة. ولو توهَّمنا تعارضًا بين دلالة المقاصد ودلالة النصوص فهذا يدل على وجود إشكالٍ إمّا في اعتبار ما ليس بمقصدٍ مقصدًا، أو في فهم النص أو ثبوته، فالخَلل حينئذٍ في الأفهام وليس في المقاصد ولا في النصوص

---

(١) أخرجه مسلم (٨٥٧).

ثمرات العلم بمقاصد الشريعة



وصلاة الخوف فيها مخالفة ظاهرة لبعض أحوال الصلاة في الأوضاع الآمنة، ولكن جاءت هذه المخالفة مُقابل مصلحة حفظ النفس؛ فالعدوُّ أمامَهم، ولا يمكنهم أن ينشغلوا جميعًا بالصلاة على صفتها التامة، فيميل العدو عليهم ميلة واحدة، فالحكم متفقٌ تمامًا مع مقاصد الشريعة من حفظ النفس، وبالقدر الذي يحصل به المقصود دون الإخلال بحفظ الدين الضروري (إقامة الصلاة) والحاجي (أداؤها في وقتها) والتحسيني (أداؤها جماعة).

فمثلُ هذا الاعتبار للمقاصد مع الأحكام بتأييدها وإظهار حكمتها مستحب، وثمراته نافعة.

الحال الثانية:

أن يبدو وكأنَّ ظاهرَ النص يُعارض مقصدًا من مقاصد الشريعة. فهل يمكن أن تتعارض المقاصد مع النصوص؟

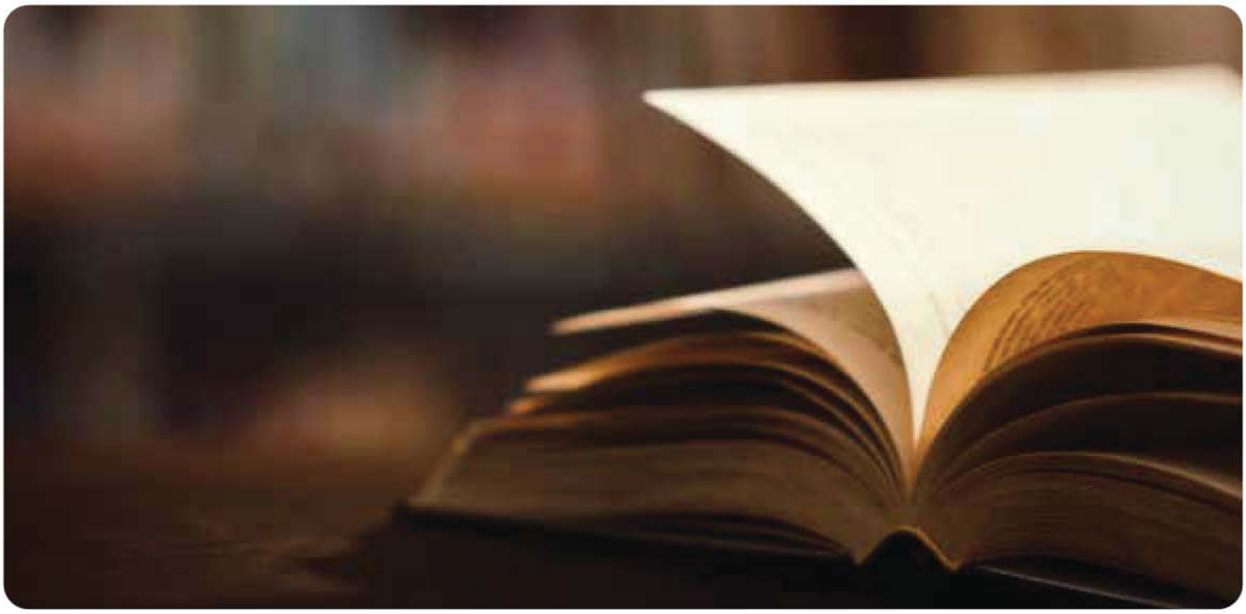
الجواب كلا، لا يمكن أن تتعارض المقاصدُ الصحيحة مع النصوص الثابتة الصريحة. فلو توهَّمنا تعارضًا بين دلالة المقاصد ودلالة النصوص فهذا يدل حتمًا على وجود إشكال ما، إمّا في اعتبار ما ليس بمقصد مقصدًا، أو في فهم النص أو ثبوته، فالخلل يكون في أفهامنا نحن وليس في المقاصد ولا في النصوص.

إنَّ الانطلاق من هذه المسلّمة يعصمنا من الميل إلى فهم ظاهريٍّ «متصلب» يُعطِّل المقاصد، أو إلى فهم مقاصديٍّ «مُتفلِّت» يلغي النصوص. وقد وُجد كلا الانحرافين في الأمة، إلا أن أكثر ما تعاني منه الساحة اليوم هو خطاب الغلوّ في المقاصد،

> **مصادمة النصوص بالمقاصد لا يصدُر عن العلماء والمجتهدين، وإنما من أدعياء العلم الذين لا يُعظِّمون النصوص حقَّ تعظيمها، ولا يرون أقوال علماء الأمة الكبار شيئًا، تصوروا المقاصد بعقول قاصرة، ثم أخذوا يتمحَّلون في ردِّ النصوص التي لا تُوافق أفهامهم، وإن قيل لهم: قولُكم هذا لم يقل به أحد من أهل العلم قبلكم، قالوا: هم رجالٌ ونحن رجال!**

فيُحتجُّ بها للالتفاف على النصوص بل والتملُّص منها اتّباعًا للهوى، أو رضوخًا لضغط الواقع، فصرنا نسمع مَن يُشكِّك في أحكام ثابتة مستقرَّة، انعقد على بعضها الإجماع، احتجاجًا بالمقاصد. بل وجدنا من يؤصِّل لتقديم العمل بالمقاصد على العمل بالنصوص بحُجَّة أنَّ الخلاف في مقاصد الشريعة أقلُّ بكثير من الخلاف في النصوص! فإذا بنينا الأحكام على المقاصد فإنَّنا نحسم كثيرًا من الخلاف الفقهي – بزعمهم-. وهذا لعمري زعمٌ باطل، بل الواقع أنَّه لا يوجد مجلسٌ يُطرح فيه الاستدلال بمقاصد الشريعة إلا أثار من اللغط والنزاع أضعافَ ما يُثيره الاختلاف في النصوص.

بل وصل الأمر ببعضهم أنْ يقول إنَّ المقاصد ميسَّرة ويفهمُها العامة والخاصة، ويمكن للجميع العمل بها، بعكس النصوص التي قد لا يفهمها إلا الخواص! وهذا والله قولٌ يهدمُ الإسلام هدمًا. أنقول للناس: تعلمون أنَّ من مقاصد الشريعة



«التيسير»، فحيثُما ضاق عليكم الأمر فيسِّروا على أنفسكم! وتعلمون أن من مقاصد الشريعة «تنمية المال» فانطلقوا في الأرض، وبيعوا واشتروا وتعاملوا كيف شئتم؟!

إنَّ مصادمة النصوص بالمقاصد لا يصدُر عن العلماء والمجتهدين، لكنَّنا ابتلينا بأدعياء العلم، ممَّن لا يُعظِّمون النصوص حقَّ تعظيمها، ولا يرون أقوال علماء الأمة الكبار شيئًا، قد تصوروا المقاصد الشرعية بعقول البشر القاصرة، ثم أخذوا يتمحَّلون في ردِّ النصوص التي لا تُوافق أفهامهم، وربما بلغت الجرأة ببعضهم أن يقول: هذا النص لا يصلح لهذا الزمان! فإن قلت لهم: قولُكم هذا لم يقل به أحد من أهل العلم قبلكم، قالوا: هم رجالٌ ونحن رجال!

ولأنَّهم ليسوا من أهل العلم، فلا قِبَلَ لهم بمناقشة المسائل مناقشةً علمية، وإنما يُحاولون هدم الأحكام باحتجاجات ساقطة، فإذا تحدَّثوا عن حدِّ الردَّة لم تجد عندهم من الحُجج لرده إلا أنه لا يَصلحُ لهذا الزمن، وأنه يُخالف «حرية الفكر والاعتقاد» الذي تُقره كلُّ الدساتير! وإذا كان الحديث عن الأحكام التي تفرِّق بين المسلم وغير المسلم ردُّوها لأنها بزعمهم لا تنسجم مع «تكريم الإنسان» و«حقوق المواطنة والتعايش»، وإذا كان الحديث عن قِوامة الرجل على المرأة قالوا: هذا كان مُحتاجًا إليه زمن البساطة والبداوة، وحين كانت المرأة جاهلة لا تعرف كيف تأخُذُ حقَّها، أما الآن فالمرأة لها مكانة كبيرة في المجتمع، وتنافس الرجل في أكثر الأعمال بل وتتفوَّق عليه، فالقوامة أضحت نوعًا من الحَجْر عليها لا يليق بها وبعصرنا الحاضر. وهُم في هذا كُلِّه لا اعتبار عندهم للنصوص الواردة في هذه المسائل، ولا يُكلِّفون أنفسَهم عناء الجواب عنها، بل يجعلونها وراءهم ظهريًا.

فما هو مسلك أهل العلم حين يوجد ما يوهم التعارض بين النصوص والمقاصد؟

إنَّهم يعظِّمُون النصوص، وينطلقون من قاعدةٍ جليلةٍ وهي: أنَّ مقاصد الشريعة مستنبطة من النصوص الشرعية، فلا يجوز شرعًا ولا يصحُّ عقلًا أن تعودَ المقاصد على النصوص بالإبطال. فحين استقرَّ ذلك في عقيدتهم بحثوا عن مسالكَ للتوفيق بين المقاصد والنصوص، وكُشف هذا الوهم، فربما رأوا قرينة ظاهرة تصرف النص عن ظاهره، أو حكموا بأن النص له سببٌ خاصٌّ وهو ليس على عمومه، أو تبين لهم بالقرائن أن هذا الذي قاله أو فعله النبي ﷺ متعلّق بمسائل الإمامة أو القضاء التي دل الدليل على أنها مرتبطة بأحوال الناس والزمان أو المكان «فيكون مصلحة للأمة في ذلك الوقت وذلك المكان، وعلى تلك الحال فيلزم مَن بعده مِن الأئمة مراعاة ذلك على حسب المصلحة التي راعاها النبي ﷺ زمانًا ومكانًا وحالًا»[1]. وغيرها من المسالك التي تظهر لمن تتبع كلامهم، ويحفظون بها حجية النصوص وقُدسيتها.

نسأل الله أن يجعلنا ممن يفقهون مراده، ويُعظِّمون شريعته، ويقتفون هديَ خير خلقه.

(١) زاد المعاد، لابن القيم (٤٢٩/٣)، ويراجع مقال مجلة رواء (مقولة السنة ليست كلها تشريعاً) في العدد الثالث.



الاجتهاد الجماعي
مجلس الإفتاء السوري نموذجًا

موفق العمر(*)

بالرغم من حالة الفُرقة التي تعصف بالأمة في الآونة الأخيرة، إلا أن الصفحات المشرقة لاجتماع الكلمة لم تغب عن حاضر الأمة، كما كانت كذلك في ماضيها؛ فقد ظهرت مؤسسات وكيانات شرعية متخصصة حملت على عاتقها جمع كلمة علماء الأمة وتوحيد جهودهم في مواجهة النوازل والمستجدات، مما نتج عنه خير كثير، والمقال الذي بين يدينا يلقي الضوء على صفحة من صفحاته البيضاء في الساحة السورية.

مقدمة:

برزت في العصر الحالي محاولات عدة لإحياء الاجتهاد الجماعي، وتطورت إلى أن ظهرت المجامع الفقهية الكبرى التي كان لها فوائد كبيرة على كافة المستويات: العبادات، والاقتصاد، والاجتماع، والسياسية، وغير ذلك.

وبعد قيام الثورة السورية برزت الحاجة الماسة لاجتماع أهل العلم في مؤسسة جامعة، فتأسس المجلس الإسلامي السوري يوم الاثنين ١٤ جمادى الآخرة ١٤٣٥هـ، الموافق ١٤ نيسان/ إبريل ٢٠١٤م، وبعدها أنشأ المجلسُ الإسلامي السوري عدةَ مجالس مختصة كان منها مجلس للإفتاء أسموه: (مجلس الإفتاء السوري) والذي تأسس بتاريخ: ٢٠ شعبان ١٤٣٨هـ، الموافق ١٦ أيار٢٠١٧م، ويضم قرابة ثلاثين رجلًا من أهل العلم والفضل.

تصدى هذا المجلس للنوازل في الشأن العام وأصدر بضعًا وثلاثين فتوى وسبعة بيانات.

فكان لا بد من دراسة هذه التجربة الرائدة في الاجتهاد الجماعي، والوقوف عند منهجها في الإفتاء، والنظر في صدى الفتاوى التي أصدرها مجلس الإفتاء وما دار حولها في المناطق المحررة وفي الداخل التركي وفي بلدان المهجر، مع التقديم بالحديث عن الاجتهاد الجماعي وأهميته وتاريخه وأهم ما يتعلق به.

تعريف الاجتهاد الجماعي:

- الاجتهاد في اللغة هو: بذل ما في الوسع من قول أو فعل(1).

(*) أكاديمي، عضو أمناء المجلس الإسلامي السوري، ومجلس الإفتاء.

(1) للاستزادة ينظر مادة (ج هـ د) في: لسان العرب، لابن منظور، معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، المصباح المنير، للفيومي، تيسير التحرير لأمير بادشاه (٤/١٧٨-١٧٩).

- والاجتهاد اصطلاحًا: بذل الوُسع في تحصيل غلبة الظن في تعرُّف حكم شرعي عملي[١].
- تعريف «الاجتهاد الجماعي»: بذْلُ جمْعٍ من الفقهاء وُسعهم مجتمعين لتحصيل حكم شرعي عملي[٢].

> **تأسس المجلس الإسلامي السوري بعد قيام الثورة السورية لجمع كلمة أهل العلم في عمل مؤسسي منظم، والذي أطلق بدوره مجلس الإفتاء مؤسسة متخصصة بالفتيا والنظر في نوازل الشأن العام.**

تاريخ الاجتهاد الجماعي:

مرَّ الاجتهاد الجماعي عبر التاريخ بعدّة محطات، يمكن إجمالها فيما يأتي:

١- عصر الصحابة:

فقد سجّل تاريخ التشريع الإسلامي أنَّ الاجتهاد الجماعي كان منهجًا متّبعًا في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولم ينكره أحد من الصحابة، فكان ذلك موافقة منهم على فعلهما[٣].

يقول الجويني رحمه الله: «إنَّ أصحاب المصطفى ﷺ استقصَوا النظر في الوقائع والفتاوى والأقضية، فكانوا يعرضونها على كتاب الله تعالى، فإن لم يجدوا فيه متعلقًا راجعوا سنن المصطفى ﷺ، فإن لم يجدوا فيها شفاء اشتورُوا واجتهدوا، وعلى ذلك درجوا في تمادي دهرهم إلى انقراض عصرهم، ثم استن بسنتهم مَن بعدهم»[٤].

٢- مرحلة الاجتهاد الفردي:

بعد عصر الصحابة انتشر الاجتهاد الفردي، وساعَدَ على هذا تفرّق المجتهدين في الأقطار مما يصعُب معه اجتماعُهم وتشاوُرهم، فاستمرَّ الاجتهاد الفردي، وتبارى المجتهدون في استنباط القواعد وتأسيس أصول بعض النظريات، فازدهر الفقه وأثرى، وكانت مجالس العلماء أشبهَ بحالة اجتهادٍ جماعي حيث يناقش الشيخ وتلاميذه الفتوى والنوازل، أو يناظرون ويناقشون غيرهم، وكانت هناك حالةٌ أقرب للاجتهاد الجماعي كما فعل القائمون على الفتاوى الهندية[٥]، وبقي الحال هكذا حتى وصلنا إلى المرحلة الثالثة.

٣- محاولات إحياء الاجتهاد الجماعي في العصر الحديث.

لعلَّ من أوائل عمليات الإحياء للاجتهاد الجماعي كانت مع مجلة الأحكام العدلية، حيث صيغت المواد الفقهية بصورة مواد قانونية، عن طريق جهدٍ جماعيٍّ من العلماء.

وبعد قيام مجامع اللغة العربية شهدت بدايات القرن الرابع عشر الهجري دعواتِ عددٍ من العلماء والباحثين إلى إحياء الاجتهاد الجماعي بطريقةٍ مؤسَّسية مقنَّنة، ومن أبرز الداعين إلى ذلك: العلامة الطاهر بن عاشور، والدكتور محمد يوسف موسى، والأستاذ مصطفى الزرقا.

ثم ظهرت مجموعة من المجامع الفقهية كثمرة لهذه الدعوة، بعد أن أدرك عُلماء الإسلام التآمر المحدق بالشريعة الإسلامية، وإقصاءها عن التشريع، كما أدركوا كثرة الحوادث والمستجدَّات التي ليس فيها رأيٌ للعلماء السابقين، وما تحمله في طيّاتها من التعقيد والتداخل، مما يوجب أن يجتمع العديد من العلماء المجتهدين، ومعهم فريق من الباحثين المتخصصين والمفكرين المبدعين في شتى العلوم والمعارف الإنسانية، بحسب ما تتطلبه القضية المنظورة، وينتظموا في مؤسسة أو هيئة اجتهادية واحدة، ليقوموا بمَهمَّتهم على أكمل وجه[٦].

وساعد على ذلك سهولة التواصل والتنقل بين أطراف العالم.

---

(١) للاستزادة ينظر: التحرير في أصول الفقه، لابن الهمام، ص (٥٢٣). وشرح تنقيح الفصول، للقرافي، ص (٤٢٩). والإحكام في أصول الأحكام، للآمدي، (٣٩٦/٤). وشرح مختصر الروضة للطوفي، (٥٧٦/٣).

(٢) للاستزادة ينظر: الاجتهاد الجماعي ودور المجامع الفقهية في تطبيقه، للدكتور شعبان محمد إسماعيل ص (٢١)، والاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي، للأستاذ الدكتور عبد المجيد الشرفي، ص (٤٦)، وغيرهما مما سيأتي.

(٣) تاريخ التشريع، للخضري، ص (١٢٨).

(٤) غياث الأمم، للإمام الجويني، ص (٤٢١).

(٥) وتسمى الفتاوى العالمكيرية.

(٦) ينظر كتاب: الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي، للشرفي، ص (٤٨)، وينظر كذلك بحث: الاجتهاد الجماعي وأهميته في مواجهة مشكلات العصر، لأستاذنا الدكتور وهبة الزحيلي رحمه الله، ص (٧)، وهو بحث قدمه إلى مؤتمر الفتوى وضوابطها الذي نظمه المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

> ظهر الاجتهاد الجماعي المعاصر مع صدور مجلة الأحكام العدلية، التي صاغت المواد الفقهية بصورة مواد قانونية، عن طريق جهدٍ جماعيٍّ من العلماء، ثم بتأسيس عدد من المجامع الفقهية التي تضم المختصين في الفقه وسائر العلوم.

أهمية الاجتهاد الجماعي وضرورته:

للاجتهاد الجماعي أهمية كبيرة، ويحقق مصالح عديدة، يمكن أن توجز في الفوائد التالية[(١)]:

١. تحقيق مبدأ الشورى.

٢. أنه أكثر دقة وإصابة وأبعد عن الخطأ.

٣. التعويض عن توقف الإجماع.

٤. تنظيم الاجتهاد ومنع توقفه.

٥. وقاية الاجتهاد من الأخطار.

٦. بيان الفتوى والحكم الشرعي في المستجدات والنوازل.

٧. خطوة في سبيل توحيد الأمة.

٨. إيجاد التكامل بين مختلف المتخصصين في العلوم الشرعية.

ومن أهم هذه الفوائد ما ذكره أستاذنا الدكتور وهبة الزحيلي رحمه الله:

١. وحدة الحكم الشرعي.

٢. تأصيل الحكم الشرعي.

٣. ضبط الفتوى.

٤. التزام المصدر الشرعي لكلِّ قول[(٢)].

محاذير في طريق الاجتهاد الجماعي:

يمكن تلخيص مخاطر ومحاذير الاجتهاد الجماعي بأربعة نقاط:

١. **تسلط المتنفذين:** خصوصًا من ناحية الأمور السياسية وكون الاجتماع في البلد المضيف.

٢. **تسلط السياسيين:** بإنشاء مجامع مصطنعة لتنفيذ أهداف خاصة.

٣. **تسلق المنتفعين:** وتصدير بعض المنتفعين للهيئات الشرعية ممّن ليس أهلًا لها.

٤. **وجود غير المتمكنين:** بقبول ترشيح الدولة العضو لمن تختاره في هذه المجالس.

مجلس الإفتاء السوري:

التعريف بمجلس الإفتاء السوري:

هو: هيئة علمية شرعية سورية تتبع المجلس الإسلامي السوري تعنى بإصدار الفتاوى الشرعية في النوازل في الساحة السورية في قضايا الشأن العام[(٣)].

> مجلس الإفتاء السوري هو: هيئة علمية شرعية سورية تتبع المجلس الإسلامي السوري تعنى بإصدار الفتاوى الشرعية في النوازل في الساحة السورية في قضايا الشأن العام.

آلية عمل مجلس الإفتاء السوري:

- تُستقبل الفتاوى عن طريق قنوات التواصل الرسمية كالبريد الإلكتروني، والحسابات على منصات التواصل الاجتماعي، وما يصله من اتصالات عبر المكتب التنفيذي أو بعض الأعضاء الكرام.
- تُصنف الفتاوى إلى قسمين:

١. ما كان فتوى لحالةٍ خاصةٍ لا تتعلَّق بالشأن العام، فيكلَّف أحد الأعضاء بالردِّ عليه، وقد يُحال إلى الهيئات العلمية والمراكز المتخصصة ومواقع الإفتاء من مكونات المجلس.

٢. ما كان من فتاوى الشأن العام أو ما شابَه ذلك أو قاربه أو مما عمَّت به البلوى أو من النوازل، يحوَّل إلى إدارة المجلس للنظر فيه.

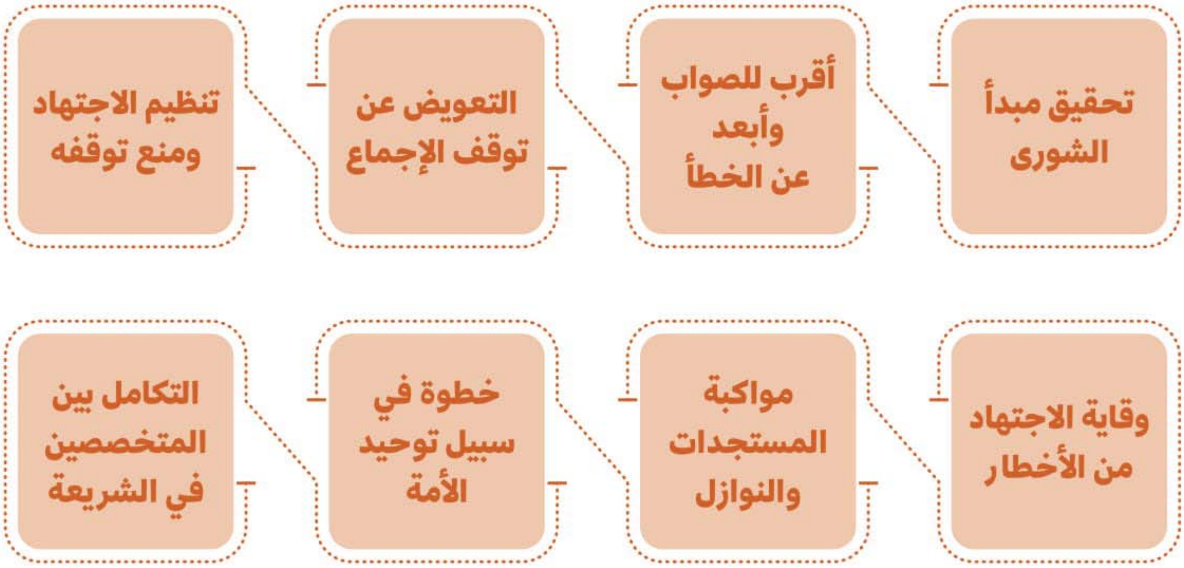
---

(١) الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي، للشرفي، ص (٧٧)، وقريبًا منه ما ذكره الدكتور سعيد شبار في بحثه: الاجتهاد والتجديد وأصول الفقه في فكرنا المعاصر – الاجتهاد الجماعي نموذجًا- ، وبحثه سابق على بحث الدكتور الشرفي.

(٢) للاستزادة ينظر: بحث أستاذنا الزحيلي الاجتهاد الجماعي وأهميته في مواجهة مشكلات العصر، ص (١١).

(٣) ينظر موقع المجلس الإسلامي السوري، وقد حدد النظام الداخلي للمجلس أهداف المجلس ومهامه، وتقسيم لجانه، وأعضائه.

أهمية الاجتهاد الجماعي وضرورته



أما ما ليس بفتوى وما لا علاقة بالإفتاء فيه، فيكون التوجيه بالإجابة عنه بما يناسب.

- عند إقرار إدارة مجلس الإفتاء إصدار فتوى في المسألة المحالة إلى المجلس، تطرح للنقاش لدى الأعضاء، وتحال بعد ذلك إلى لجنة كتابة الفتوى، ومن ثمّ تحال إلى لجنة تقرير الفتوى لكتابتها بصيغتها النهائية.
- ثمَّ يبحثها أعضاء اللجنة، ويخلُصون إلى نتيجة علمية متوافق عليها، وتستعين أثناء عملها بمن تراهم من الخبراء الشرعيين، أو القانونيين، أو الاقتصاديين.
- ثم تُحال إلى لجنة صياغة الفتوى المكوَّنة من ثلاثة أعضاء لتُخرجها في ثوبها النهائي.
- بعد صياغة الفتوى بشكلها النهائي تعرض على جميع أعضاء المجلس البالغ عددهم (٢٨) عضوًا لأخذ ملاحظاتهم عليها من الناحية العلمية والصياغة اللغوية حتى تقر، ثم تنشر بعد أخذ موافقات الأعضاء على نشرها مع الإقرار بذكر أسماء الموافقين.
- في حال وجود ملاحظات كبرى أو عدم التوافق على الفتوى المعروضة تعاد الفتوى مرةً أُخرى للجنة تقرير الفتوى وتؤخذ الملاحظات بعين الاعتبار، ثم يعاد طرحها من جديد على أعضاء المجلس حتى إقرارها.
- يقوم أحد أعضاء المجلس بتوضيح ما يتعلق بالفتوى عند الحاجة إلى ذلك، أو كان الجدل حولها كبيرًا، ومن ذلك ما حصل عندما قدَّم الشيخ أحمد حوى توضيحاً حول فتوى الزواج من الكتابية في دار غير المسلمين.
- وقد يكون هناك تحفّظ على الفتوى من بعض الأعضاء على عبارة أو على ذكر الاسم فيسجل ذلك في محاضر الفتاوى، وعمليًا كانت حالات التحفظ قليلة الحدوث مقتصرة على بضع فتاوى.
- بعد موافقة أعضاء المجلس على إصدار الفتوى، يتم إصدار الفتوى ونشرها مع أسماء الموقعين عليها في المواقع الرسمية والصفحات الرسمية التابعة للمجلس الإسلامي السوري[(١)].

(١) بالتواصل مع الأستاذ: محمود نعيم المدني المسؤول التنفيذي لمجلس الإفتاء السوري، مع تعديلات من فضيلة الدكتور محمد معاذ الخن رئيس مجلس الإفتاء السوري، وفضيلة الدكتور عماد الدين خيتي نائب رئيس مجلس الإفتاء السوري حفظهم الله جميعًا.

- طبعت هذه الفتاوى في كتيب مستقل، وتمّ توزيعه على جميع الهيئة العمومية، وهو موجود في المكتب التنفيذي لمن أراد أن يحصل على نسخة من الفتاوى التي صدرت عن المجلس في دورته الأولى.
- يُراعى موضوعُ الفتوى وعنوانها بدقة متناهية بحيث يستطيع الباحث أن يفهم مضمون الفتوى بمجرد قراءة العنوان.

امتازت جهود المجلس الإسلامي السوري ومجلس الإفتاء من بعده باستقلال القرار وعدم الخضوع أو الارتهان للمؤسسات السياسية، أو الدولية، أو نحوها.

أهمية مجلس الإفتاء السوري:

سبق تأسيسَ المجلس الإسلامي السوري عدةُ مراحل في التنسيق بين المؤسسات العلمية السورية، كان منها مكتب التنسيق، والملتقى الإسلامي السوري، كما صدرت بيانات ومواقف شرعية مشتركة بين الروابط والهيئات العلمية السورية، حتى تداعى القائمون على هذا المؤسسات والهيئات والروابط إلى تأسيس المجلس الإسلامي السوري، وبتضافر الجهود تأسس من غالب المؤسسات الشرعية في سوريا، ومثَّل مختلف مدارسها الفكرية، وكان من أهم مميزات هذا المجلس: استقلال قراره وعدم خضوعه أو ارتهانه لمؤسسة سياسية، أو دولية ونحو ذلك(١).

ولا شك أن وظيفة الفتوى هي عمادُ تحقيق المرجعية للمجلس الإسلامي السوري.

وقد نصت **المادة الخامسة من النظام الداخلي لمجلس الإفتاء على الأهداف والمهام له، وهي:**

١. توضيح الحكم الشرعي في المستجدات والنوازل في قضايا الشأن العام.
٢. العمل على إيجاد رؤية فقهية مشتركة للعلماء في سورية.
٣. تحقيق الاجتهاد الجماعي القائم على الشورى والتداول العلمي، مما يتيح النظر إلى الأمور من زوايا مختلفة.
٤. نشر الفتاوى والدراسات التي تساعد الناس على حل مشكلاتهم، وتبصُّرهم بأمور دينهم، وإصدار بيانات تبيِّن الحكم الشرعي من القضايا الهامة والمصيرية في الشأن السوري.
٥. الرد على الفتاوى التي تخالف ثوابت الدين وقواعد الاجتهاد المعتبرة، وما استقر من مذاهب الأئمة.
٦. الحد من فوضى الفتوى التي أسهمت في الفوضى في الساحة السورية.

أثر فتاوى المجلس الإسلامي السوري في الشأن العام:

نهض المجلس الإسلامي السوري منذ نشأته بالتصدِّي لنوازل الثورة السورية، إفتاء، وتوجيهًا، إلى حين إنشاء مجلس الإفتاء السوري.

وقد صدرت عن المجلس عدد من الفتاوى المتعلقة بالشأن العام في عدد من الموضوعات، من أبرزها: أحكام إثبات دخول شهر رمضان والأعياد، وعدد من الأحكام المتعلقة بالزكاة وصدقة الفطر والحج، وعدد من نوازل الثورة السورية، كالتكييف الفقهي للمعركة القائمة مع النظام، وأحكام التغلب بين الفصائل، وبيع الأراضي والعقارات للشيعة في سوريا، وغيرها.

أما أهم الموضوعات التي واجهت المجلس الإسلامي حين نشأته فهي التعامل مع الغلاة، حيث كانوا في أوج ظهورهم وحركتهم، **وقد تمثل إنجاز المجلس في النقاط التالية:**

١. الوعي التام بفكر الغلاة ومشاريعهم، وخطورة ذلك على المجتمع السوري خصوصًا والإسلامي عمومًا: شرعيًا، واجتماعيًا، ومستقبل البلاد، ووضوح الرؤية في الموقف منها، ومن ذلك: الورشة التي عقدها مركز الدراسات في المجلس بعنوان (مناهضة الغلو)، والتي أقرت عدة توصيات لمكافحة فكر الغلو، ومثلت اتفاق المجلس على الوعي بهذا الخطر وضرورة مكافحته.

(١) ينظر بحث: دور المرجعية العلمية في مكافحة الغلو، للدكتور عماد الدين خيتي نائب رئيس مجلس الإفتاء حاليًا: ورقة تقدم بها إلى ندوة (نحو مقاربة نموذجية لمواجهة خطاب الغلو والتطرف في السياق السوري، من خلال التجارب والدروس المستفادة) التي أقامها مركز الحوار السوري في إسطنبول بالشراكة مع مؤسسة قرطبة في جنيف، في ٢٢ ربيع الآخرة ١٤٤٠هـ، الموافق ٢٩-١٢-٢٠١٨م.

٢. المفاصلة التامة مع هذه المشاريع، مع الحكمة والتدرج في التعامل معها.

٣. إصدار الفتاوى والبيانات في أحكام التعامل مع هذه الجماعات، وما ينتج عنها من مستجدات.

٤. عقد الندوات العلمية، واللقاءات مع مختلف قوى الثورة، والتوعية بخطر هذه الجماعات وحقيقتها.

وقد بلغت مجموع فتاواه في مختلف المسائل المتعلقة بجماعات الغلو (٧) فتاوى من أصل (٤١) فتوى، شملت أحكام التعامل مع هذه الجماعات وآثارها، كما أصدر حوالي (٣٠) بيانًا من أصل (١٧٠) بيانًا في التعليق على تصرفات الغلاة وما يتعلق بها من أحداث الثورة.

وقد لقيت هذه الفتاوى والبيانات القَبول مِن مختلف قوى الثورة، بصفتها الجامعة لمختلف المؤسسات العلمية السورية ومشايخها، والمؤتمنة على تمثيل الثورة شرعيًا.

> **كان لاجتماع كلمة المؤسسة الدينية على الموقف من الغلاة أثر في عدم استفادة الغلاة من وجود بعض المؤيدين لهم أو الصامتين عنهم، في شق صف المؤسسة أو غموض أو ضعف موقفها، كما حصل في أماكن أخرى من بلاد العالم الإسلامي.**

ومن ذلك:

١. كانت أولى فتاواه (فتوى حول تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام)، وبيان (حول بطلان إعلان الخلافة مِن قِبل تنظيم دولة العراق والشام) والتي نزعت الشرعية عن التنظيم، ووصفته بالخروج، وأفتت بقتالهم لردع عدوانهم، وقد كان لها صدى كبير في الإعلام الداخلي والخارجي.

٢. وهناك (فتوى أحكام الزواج من مجهول الاسم والنسب) في التحذير من تزويج مجهولي الاسم والنسب وخطر ذلك على المكون الاجتماعي، وغالب هؤلاء من الغلاة.

وقد كان لاجتماع المؤسسات الشرعية في المجلس أبلغ الأثر في عدم خروج أحد من أهل العلم الموثوقين بما يخالف المجلس في موقفه من الغلاة، مما أفقد الغلاة أي دعم شرعي من مرجع علمي معروف.

ويلحظ في الحالة السورية: أثر اجتماع كلمة المؤسسة الدينية على الموقف من الغلاة، وعدم استفادة الغلاة من وجود بعض المؤيدين لهم أو الصامتين عنهم، في شق صف المؤسسة أو غموض أو ضعف موقفها، كما حصل في أماكن أخرى من بلاد العالم الإسلامي[1].

عناوين فتاوى المجلس:

وبعد نشأة مجلس الإفتاء السوري تولى إصدارَ الفتاوى في النوازل وقضايا الشأن العام، فأصدر إلى حين كتابة هذا المقال سبعة بيانات تتعلق بإثبات هلال رمضان وهلال شوال، وأصدر بضعًا وثلاثين فتوى في قضايا الشأن العام ونوازل الساحة السورية، وهي:

١. حول أحكام البيع عن طريق النت.
٢. في حكم إثبات وفاة المعتقلين من خلال صور قيصر المسربة.
٣. في حكم صلاة العيد في البيوت بسبب الوباء.
٤. بشأن تقدير صدقة الفطر وفدية العاجز.
٥. حول أحكام الصيام والقيام في زمن الوباء.
٦. حول أحكام التعامل مع مرضى وموتى الأمراض الوبائية.
٧. حكم ترك الجمعة والجماعة خشية الوباء.
٨. حكم إسكان النازحين في المساجد.
٩. أحكام الحوالات المالية.
١٠. دفن الموتى عند شح الأراضي المخصصة للدفن.
١١. حكم التعامل بالعملات الإلكترونية المشفرة.
١٢. حكم التسويق الشبكي الهرمي.
١٣. حول حكم الانضمام لصفوف جيش النظام وفيالق الاحتلال.
١٤. حول صدقة الفطر وفدية العاجز عن الصوم.
١٥. في حكم القتل بدافع الشرف.
١٦. في حكم عقد الزواج بوسائل الاتصال الحديثة.
١٧. حكم الزواج من أهل الكتاب في بلاد غير المسلمين.

(١) المرجع السابق، (ص ١٠).

١٨. حكم الاستيلاء على الممتلكات في منطقة غصن الزيتون.
١٩. حكم الأموال التي تصرف للميت بعد موته.
٢٠. حكم التصرف بعينيات تخص أهل الغوطة.
٢١. حول قوانين التهجير والتغيير السكاني.
٢٢. حكم شراء المسروقات.
٢٣. حكم بناء المساجد فوق محلات تجارية.
٢٤. حكم قتال قسد.
٢٥. حول التقاضي لمحاكم غير إسلامية في قضايا الطلاق.
٢٦. حول حكم فرض الضرائب في المناطق المحررة.
٢٧. حول أحكام الزواج من مجهول الاسم والنسب.
٢٨. حول أحكام زوجة الغائب والمفقود.
٢٩. حول اجتماع صلاة العيد مع الجمعة.
٣٠. حول أثر تغير قيمة العملة على أداء الحقوق.
٣١. حول حكم بيع الأراضي والعقارات للشيعة في سوريا.
٣٢. حول التعامل مع الخوارج الفارين من أرض المعركة.

وسيتوقف هذا المقال عند فتويين كان لهما أثر واضح في الداخل السوري وفي المهجر، وتسببتا بحالة نقاش كبيرة على وسائل التواصل، وهما: حكم القتل بدافع الشرف، وحكم زواج المسلم من الكتابية في بلاد غير المسلمين.

الفتوى رقم: ٢٢ حكم القتل بدافع الشرف(١):

وقد صدرت بتاريخ الخميس ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٤٠هـ الموافق ٧ آذار/مارس ٢٠١٩م

ويمكن عرض ملخصها في النقاط التالية:

- التأكيد على أن الزنا كبيرة مِن كبائر الذنوب، ورذيلة من رذائل الأفعال.
- التشديد على حرمة قتل المسلم بغير حق من أعظم الجرائم بعد الشرك بالله.
- الغيرة على العرض صفةٌ محمودةٌ، والدفاع عن الشرف ممدوح ويدل على كمال النفس.
- التأكيد على أن المسلم يخضع لشرع الله لا للعادات والتقاليد.
- تفصيل حكم القتل بدافع الحفاظ على الشرف، وبيان مراتبه، وأحكام كل مرتبة.

أهم ما تميزت به فتوى القتل بدافع الشرف:

- الاستيعاب لجميع الحالات التي تكتنفها هذه الفتوى.
- الجرأة في بيان الحكم الشرعي في مجتمع ينتشر فيه السلاح مع الحكمة في ضبط استعماله.
- مدح دافع الغيرة والحفاظ على الشرف الذي هو أصل في المجتمع المسلم والأصل الطبيعي له.

وغير ذلك مما نجده قد حقق ما ذكره الزحيلي والشرفي.

الفتوى رقم ٢٠: فتوى زواج المسلم من الكتابية في بلاد الكفار(٢):

وقد صدرت بتاريخ الإثنين ١٩ صفر ١٤٤٠هـ الموافق ٢٩ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠١٨م

ويمكن عرض ملخصها في النقاط التالية:

- منع زواج المسلم من الكتابيات الآن حتى تتوفر الشروط وتنتفي الموانع والتي بينتها الفتوى.
- أما المرأة المسلمة فلا يجوز لها أن تتزوج بغير مسلمٍ بالإجماع.

أهم ما تميزت به الفتوى:

- دراسة الموضوع وسؤال الخبراء من السوريين الذين يعيشون الحالة وبشكل متوسع.
- اعتمدت أصالة على الأمر الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم حقيقة.
- النظر إلى مآل هذا الزواج مع مراعاة للواقع.
- راعت المستفتي حيث نظرت إلى أماكن وجودهم في عدد من الدول، واستشارت عددًا من المراكز في تلك البلاد.
- كان للفتوى أثر طيب عند الجمهور، ولا شك أن هذه الفتوى أثارت بعض الجلبة إذ بعض الناس يستسلم للواقع المُزري ولا يحسب المآل، فوظيفة المفتي أن يرشد الناس إلى الله عزّ وجل ويرشدهم إلى أحسن أحوالهم، ومن أجل ذلك وبعد مجموعة من الردود والاستفسارات على

---

(١) ينظر: الموقع الرسمي للمجلس السوري، قسم الفتاوى.
(٢) ينظر: الموقع الرسمي للمجلس السوري، قسم الفتاوى.



هذه الفتوى قام أحد أعضاء مجلس الفتوى وهو الدكتور أحمد سعيد حوى ببيان بعض الملابسات حتى تكون الحُجة أبلغ وأظهر في هذه الفتوى(١).

- حققت الفتوى الفوائد التي ذكرها الزحيلي والشرفي التي سبقت الإشارة لها.

وفي الختام:

بعد هذه الجولة المختصرة بالتطواف على الاجتهاد الجماعي والتعريج على مجلس الإفتاء السوري ألقي اليراع لافتًا الانتباه إلى عدد من المقترحات والتوصيات التي تكمل جوانب البحث وتضيء السبيل لإتمام أهداف المجلس المبتغاة، فيما يأتي:

١. توسعة المجلس ليشمل من تبقى من أهل العلم والفتيا من العلماء السوريين، من داخل سورية وخارجها.

٢. تواصل مجلس الإفتاء السوري مع المجامع الأخرى؛ ليتابع من حيث انتهوا، وينسق معهم، ويتم تبادل الخبرات.

٣. إصدار مجلة تحوي الفتاوى مع المناقشات مثل مجلة مجمع الفقه الإسلامي.

٤. تطوير المجلس في بنيته المؤسسية ولجانه وأعماله.

٥. النظر في زيادة عدد أعضاء المجلس من أهل العلم مع تفريغ عدد منهم؛ ليتوافق مع حجم المهمة المناطة به، ويتم التجاوب الأسرع مع الفتاوى.

٦. زيادة الظهور الإعلامي بأشكاله كافة، لرئيس المجلس وأعضائه للتهيئة والتوطئة قبيل إصدار الفتاوى التي يتوقع حصول جدل حولها.

٧. أن يقوم المجلس بدورات تعليمية وإعدادية من أجل إعداد المفتين في الداخل السوري وخارجه، ومن ذلك دورات كيفية إعداد المفتين، وكيفية إصدار الفتوى وما إلى ذلك.

٨. رصد صدى الفتاوى ومتابعتها والعمل على قياس أثرها، واتخاذ ما يلزم حيال تلك النتائج.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ينظر: التسجيل المصور للكلمة على موقع اليوتيوب بعنوان (توضيح الالتباس الحاصل بخصوص فتوى حكم الزواج من أهل الكتاب في بلاد غير المسلمين).



تزكية

من ملامح الشخصية المسلمة

د.مأمون القادري(*)

الإسلام دين وثقافة وحضارة، وهو شامل لكل ما يهم المسلم في حياته من عقيدة وعبادة وسلوك ومعاملة واهتمامات، ونظرته للحياة كافة؛ مما يجعل شخصية المسلم متميَّزة عن أتباع بقية الديانات والملل والثقافات بمميِّزات وملامح وردت تفاصيلها في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية. وفي هذا المقال جملة من هذه الملامح، جمعها الكاتب من خلال تتبُّع الأحاديث النبوية التي وردت فيها لفظة (ليس منّا).

كان من عادة أحد المعلِّمين أن يدخل علينا فيقول: صباح الخير، فقيل له مرةً: يا أستاذ لماذا لا تُحِّيينا بتحية الإسلام (السلام عليكم) مع أننا نراكَ محبًّاً للدين؟ فسكت ولم يُعطِ جواباً، بل ظهر على وجهه الخجل. فلماذا نخجلُ من تحية الإسلام وقد ميَّزنا الله بها، ورسولنا الكريم ﷺ قال: (ليسَ مِنَّا مَن عمِل بِسُنَّة غيرنا)[1].

لقد حرص رسول الله ﷺ على أنْ تكون للمسلم شخصية متميزة، تُعبِّر عن انتمائه الحقيقي للإسلام. فلم يرضَ رسول الله ﷺ أن تكون شخصية المسلم شخصيةً تابعة للشرق أو الغرب، ولا شخصيةً تعتزُّ بالشعارات الجاهلية وتنتمي لها، ولا شخصيةً باهتةَ الملامحِ غيرَ واضحةِ المعالم، بل أرادها شخصيةً متميزةً بإسلامها فكرًا وسلوكًا، تتمثَّل دينها ظاهرًا وباطنًا، قلبًا وقالبًا.

والسؤال: كيف تظهر هذه الشخصية الإسلامية؟ وماهي سماتها وملامحها؟

حفلت النصوص الشرعية ببيان ملامح هذه الشخصية بطرق عديدة، ومن هذه الطرق: بيان الحدود الفاصلة بين شخصية المسلم وغيرها من الشخصيات، بنحو قوله ﷺ (ليسَ مِنَّا) في عدد من الأحاديث. فإذا سمع المسلم قول (ليسَ مِنَّا) فيعلم أنه ثمة حدودٌ ينبغي أن يبتعد عنها، وأمورٌ محظورة يجبُ الحذر منها، وأن التلبُّس بهذه

(*) طبيب، وحاصل على دبلوم دراسات عليا في الحديث.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١٣٣٥).

الأمور هو اتِّصافٌ بالصفات المذمومة الممنوعة، مما يوقع في المخالفة التي تستوجب التوبة وإلا فالعقوبة.

وهذه المحاذير والمنهيات التي نهى الرسول ﷺ عنها، وحذَّر منها، ترسُمُ بعمومها ملامح للشخصية المسلمة التي تتميَّز عن غيرها، وتنفرد بصفات وخصائص أصيلة.

إذا سمع المسلم قول (ليسَ مِنَّا) فيعلم أنه ثمة حدودٌ ينبغي أن يبتعد عنها، وأمورٌ محظورة يجبُ الحذر منها، وأن التلبُّس بهذه الأمور هو اتِّصافٌ بالصفات المذمومة الممنوعة

وفيما يأتي بعض هذه الملامح:

أولاً: الاعتزاز بالإسلام والانتماء إليه:

من أهم ملامح شخصية المسلم: الانتماء للإسلام، والولاء لجماعة المسلمين، ومحبتهم ونصرتهم، وعدم تقديم شيء من أنواع الانتماءات الأخرى على الانتماء للإسلام والاعتزاز به، كالتَّعصب لحزب أو عشيرة أو قبيلة وتقديم الاعتزاز بها والانتماء لها على الإسلام؛ فهو مما يقدح في هذا الانتماء، وفي هذا يقول ﷺ: (مَن خرج مِن الطَّاعة، وفارق الجماعة فمات، مات مِيتةً جاهليّةً، ومَن قاتل تحت رايةٍ عُمّيةٍ يغضب لعَصبةٍ، أو يدعو إلى عصبةٍ، أو ينصر عصبةً، فقُتل، فقِتلةٌ جاهليّةٌ، ومَن خرج على أمّتي، يضرب برَّها وفاجرَها، ولا يتحاشى مِن مؤمنِها، ولا يفي لذي عهدٍ عهده، فليس منّي ولستُ منه)[١].

ثانيًا: العقيدة الصافية التي لا شوائب فيها:

ففي الحديث: (ليس مِنَّا من تطيّر أو تُطيّر له، أو تكهَّن أو تُكهِّن له، أو سَحَر أو سُحر له)[٢]. فالطيرة والكهانة والسحر من أفعال الجاهلية المنافية لعقيدة الإيمان بالله وإرادته وقدرته. وفي الحديث: (ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية)[٣]، وهذه من أفعال الجاهلية عند وفاة قريب أو حبيب. وفي الحديث: (ليس مِنَّا من حَلق وسَلَق وخَرَق)[٤]، أي حلق الشعر، ورفع الصوت بالندب، وخرق الثوب اعتراضًا على قضاء الله تعالى وقدره، وشرخ في إيمان المسلم بتدبير الله وحكمته.

ثالثًا: الأخلاق الراقية:

فالمسلم تظهر أخلاقه في تعاملاته الاجتماعية، ففي الحديث: (ليس مِنَّا من لم يرحم صغيرنا ويُوقِّر كبيرنا)[٥]، وفي الحديث: (ليس مِنَّا من خَبَّبَ امرأة على زوجها)[٦]. كما تظهر أخلاقه في تعاملاته المالية ومصالحه المادية ففي الحديث: (من غشَّنا فليس مِنَّا)[٧]، وفي الحديث: (ليس مِنَّا من انتَهَبَ أو سَلَبَ أو أشار بالسَّلبِ)[٨]، أي: انتهاب الغنائم أو المكاسب المادية، وأيضًا: (ليس مِنَّا من أَجلَب على الخيل يوم الرهان)[٩] أي: صاح بها واستحثَّها، بهدف دعم ومساندة أحد المتسابقَين على الآخر.

رابعًا: التلذُّذ بالعبادة:

فقد حذَّرنا نبينا ﷺ بقوله: (ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن)[١٠]، زاد أحد الرواة: (يَجْهَرُ بِهِ)، أي يترنَّم بقراءته، ويستعذِب سماعه من القراء المجودين. قال ابن رجب: «يجعله عوضًا عن الغناء فيطرب به ويلتذ، ويجد فيه راحة قلبه وغذاء روحه، كما يجد غيره ذلك في الغناء بالشعر»[١١].

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٨)، وفي هذا المجال يُروى الحديث الذي أخرجه أبو داود (٥١٢١): (ليسَ مِنَّا من دعا إلى عَصَبيَّة، وليس مِنَّا من قاتل على عَصَبيَّة، وليس منا من مات على عَصَبيَّة)، لكنه ضعيف، قال أبو داود: هذا مرسلٌ، عبد الله بن أبي سليمان لم يسمع من جبير.

(٢) أخرجه البزار (٣٥٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٩٤)، ومسلم (١٠٣) واللفظ له.

(٤) أخرجه مسلم (١٠٤).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٩٤٣).

(٦) أخرجه أبو داود (٢١٧٥). ومعنى خَبَّب: أفسد.

(٧) أخرجه مسلم (١٠١).

(٨) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٦٠٥).

(٩) أخرجه أبو يعلى (٢٤١٣).

(١٠) أخرجه البخاري (٧٥٢٧).

(١١) فتح الباري، لابن رجب (٤٣٥/٨).

من ملامح الشخصية المسلمة

الاعتزاز بالإسلام والانتماء إليه	التلذُّذ بالعبادة
العقيدة الصافية التي لا شوائب فيها	العناية بالمظهر الخارجي
الأخلاق الراقية	مراعاة العادات والأعراف
الإيجابية في النشاطات الإنسانية والعامة	

لم يرضَ رسول الله ﷺ أن تكون شخصية المسلم شخصيةً تابعة للشرق أو الغرب، ولا شخصيةً تعتزُّ بالشعارات الجاهلية وتنتمي لها، ولا شخصيةً باهتةَ الملامح غيرَ واضحةِ المعالم، بل أرادها شخصيةً متميزةً بإسلامها فكرًا وسلوكًا، تتمثَّل دينها ظاهرًا وباطنًا، قلبًا وقالبًا

خامسًا: المظهر الخارجي:

ففي الحديث: (ليس منَّا من تشبَّه بالرجال من النساء، ولا من تشبَّه بالنساء من الرجال)[1]؛ سواءً في اللباس أو المشية أو الصفات الخاصة، وفي الحديث: (ليس مِنَّا من تشبَّه بغيرنا، لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى)[2]، فنهانا عن التشبُّه بهم في اللباس، والتشبُّه بهم في السلام والتحية، والتشبُّه بهم في أسمائهم. وفي الحديث: (قُصُّوا الشَّوارب، واعفوا اللِّحى، ولا تمشوا في الأسواق إلا وعليكم الأُزُر، إنَّه ليس مِنَّا من عَمِل بسُنَّة غيرنا)[3]، وفي الحديث: (من لبس الحرير وشرب في الفضة فليس مِنَّا)[4].

سادسًا: العادات والأعراف:

ففي الحديث: (ليس منَّا من عَمِلَ بسنَّة غيرنا)؛ أي: من اقتدى بغير المسلمين في أعيادهم ومناسباتهم وعاداتهم الخاصة بهم. وفي الحديث: (لا تُساكنوا المشركين ولا تجامعوهم، فمن ساكنهم أو جامعهم فليس منَّا)[5]، فالمسلم الحقُّ متميِّز عنهم في سهراته وجلساته، ولا يرضى أن تميع شخصيته مع هؤلاء.

سابعًا: الإيجابية في النشاطات الإنسانية والعامة:

المسلم الحق نشاطاته خيِّرةٌ نافعةٌ للمسلمين وللإنسانية، فلا يؤذي أحدًا؛ ففي الحديث: (من حَمِل علينا السلاح فليس منَّا)[6]، كما أنَّه لا يكون عونًا على ظلم أحدٍ من الناس؛ ففي الحديث: (إنَّها ستكون أمراء يَكذِبون ويَظلمون، فمن صدَّقهم بكذِبهم وأعانهم على ظُلمهم فليس منّا ولستُ منهم، ولا يَرِدُ عليَّ الحوض، ومن لم يُصدِّقهم بكذبهم ولم يُعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه، وسيرد عليَّ الحوض)[7].

هذه بعضُ الملامح العامة التي تُسهم في رسم شخصية المسلم، ومناراتٌ مضيئة على الطريق، فتارةً تؤكد له سلامة الطريق الذي يسير عليه، وأنَّه يبقيه (مِنَّا)، وتارةً تحذِّره من الابتعاد عن الطريق حتى لا يدخل في وعيد (ليس منّا).

---

(١) أخرجه أحمد (٦٨٧٥).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٩٥).
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١٣٣٥).
(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٣٩٥٩).
(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٦٢٧)، والمقصود بمجامعة المشركين: لا تخالطوهم مخالطةً توقعكم في الإثم.
(٦) أخرجه البخاري (٦٨٧٤)، ومسلم (٩٨).
(٧) أخرجه أحمد (٢٣٢٦٠).



النظريةُ السياسيةُ الإسلاميةُ مقارنةً بالنظرياتِ السياسيةِ الحضاريةِ

أ. ياسر المقداد (*)

تميَّزت النظرية السياسيَّة الإسلامية بخصائص لم تعرفها الحضارات من قبل، فشكّلت بذلك إثراء عظيماً للبشرية في تحديث نظرياتها السياسية، ونظراً للتنافس الحضاري جرى تجاهلٌ متعمدٌ وتشويهٌ ممنهج في محاولةٍ لطمس هذه الحقائق وإشاعة قناعةٍ بعدم صلاحية النظرية السياسية الإسلامية للواقع؛ وفي هذا المقال مقارنةٌ دقيقة بين النظرية السياسية الإسلامية والنظريات السياسية الحضارية.

مرَّت البشرية بتجارب سياسية متنوعة في آسيا وشرق آسيا، وفي أمريكا الجنوبية، وفي أوروبا، وقامت حضاراتٌ أسهمت في تطوُّر النظرية السياسية[(١)] في العالم كحضاراتِ مِصــرَ القديمة وفارس والهند والصين قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، ثم اليونان والرومان والحضارة الإسلامية، ثم في العصور الوسطى كانت الدولة الكاثولوكية البابوية التي قامت على أنقاض الدولة الرومانية، ثم جاءت الدولة الحديثة تفاعلًا طبيعيًا وردَّ فعلٍ على التشوُّهات الكبيرة التي أحدثتها الدولة الكاثولوكية في أوروبا؛ تلك النماذج أدَّت بتراكمها إلى أنْ تُطَوِّر البشرية فكرَها ونُظُمَها السياسية[(٢)] في جانب تعزيز وتثبيت القيم الإنسانية وحفظ حرية وكرامة وحقوق الشعوب وسيادة القانون وتحديد الاختصاصات وتطوير المؤسسات السياسية.

(*) ماجستير في أصول الفقه، له عدّة إسهامات في التأليف والتحقيق.

(١) يفرِّق علماء السياسة بين الفكر السياسي والنظرية السياسية والنظام السياسي: فالفكر السياسي: محاولة إيجاد حلولٍ لمشكلات قائمة أو متوقعة. والنظرية السياسية: هي شكلٌ أكثر تقدمًا من الأفكار السياسية، حيث تبدأ الأفكار بالنضج لتنتقل إلى تشكيل إطارٍ كامل شامل لمعالجة ظاهرة معينة، فالنظرية هي الإطار القابل للتطبيق على واقع معين. أما النظام السياسي: فهو الشكل المؤسسي للنظرية السياسية، حيث تتحوّل النظرية السياسية إلى نموذج إداري ويتشخّص بمؤسساته ليكون تعبيرًا وتجسيدًا عمليًا لها. والمقصود بـ «النظرية السياسية الإسلامية» في هذا المقال المنظومة السياسية الفكرية المتكاملة في الشريعة الإسلامية، وعندما يذكر «النظام السياسي الإسلامي» فالمقصود به النظرية السياسية مع الجانب المؤسساتي، وذلك كمجلس أهل الحل والعقد والقضاء وتقسيم الوزارة إلى تفويض وتنفيذ، ولا يقصد به تجربة تاريخية معينة، وهذا هو المفهوم من كتابات كثير من فقهاء السياسة الشرعية.

(٢) هذا التطور حصل بفعل أمرين: المعاناة الطويلة للشعوب على مر التاريخ، والدراسات الفكرية السياسية مع الخبرة العملية كما عند اليونان والمسلمين وحديثًا في أوروبا نهاية العصور الوسطى إثر المعاناة الطويلة، ولم يكن بمجرد فضول البحث والنظر.

> ما قدَّمته الحضارات الأخرى في مجال النظرية والنُّظُم السياسية كان هو القاعدة التي اتكأت عليها أوروبا في نهضتها في مجال السياسة

وسيقدِّم المقال دراسةً مقارنة بين أبرز النظريات الحضارية السياسية والنظرية السياسية الإسلامية، وستعتمد هذه الدراسة المقارنة على أربعة نماذج[١]:

١. **النموذج اليوناني**؛ لما تركه من آثار كبيرة في الفلسفة السياسية والنظرية السياسية عمومًا.

٢. **النموذج الروماني**؛ حيث اجتاح الرومان بلاد اليونان وأفلت شمس اليونان إيذانًا بولادة حقبة جديدة.

٣. **نموذج الدولة الكاثولوكية البابوية** في العصور الوسطى التي خَلَفَتِ الإمبراطورية الرومانيةَ القديمةَ، والتي أدت بسبب فظاعة ممارساتها إلى ولادة الكثير من الجدل السياسي والنظريات السياسية التي شكّلت في نهاية المطاف نموذج الدولة الحديثة.

٤. **النموذج الرابع هو نموذج الدولة الحديثة في أوروبا**؛ ولعل القارئ يلحظ أنَّ التركيز اتّجه بشكل أكبر نحو أوروبا حيث إنَّ النموذج الروماني والنموذج الكاثولوكي وكذلك الدولة الحديثة كلُّها في أوروبا، وإنما كان ذلك؛ لأنَّها من حيث التسلسل الزمني هي الأقرب، وكذلك لأنَّها شكّلت بتسلسلها حلقاتٍ متّصلةً انتهت بنموذج الدولة الحديثة، والتي أصبحت اليوم النموذجَ المهيمنَ في واقع الممارسة السياسية، وفي المقابل فإنَّ ما قدَّمته الحضارات الأخرى في مجال النظرية والنظم السياسية كان هو القاعدة التي اتكأت عليها أوروبا في نهضتها في مجال السياسة، ويؤكِّد الباحثون أنَّ التواصل الحضاريَّ بين هذه الحضارات هو العامل الرئيسي في بلورة ونضج النظريات بل والنظم السياسية الحديثة، فعلى سبيل المثال: يُرجع كثيرٌ من الباحثين نظرية العقد الاجتماعي إلى إشارات واضحة في طروحات فلاسفة اليونان، وكذلك ما عرف بالقانون الطبيعي أو الحقوق الطبيعية التي تحدث عنها شيشرون بشكلٍ جليٍّ كانت قد بُنيت على طروحاتٍ سابقةٍ لفلاسفة اليونان[٢]، ومن ذلك أيضًا ما أكّده عددٌ من المؤرِّخين الغربيين أنَّ مفكري أوروبا في القرن التاسع عشر لجؤوا إلى التجربة النظمية الإسلامية لتطوير مفاهيم الديمقراطية وتطبيقاتها من خلال إدخال مفاهيم «الشورى» و«أهل الحل والعقد» و«تفويض السلطات» على النظرية الديمقراطية ذات الطابع اليوطوبي[٣] التي ظهرت في اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد[٤].

> عرف النموذج السياسي الإسلامي مبكّراً مبدأ رقابة الأمة على الحكام، وقدّم منظومة جديدة في ترسيخ القيم السياسية

النظام السياسي الإسلامي: إثراءٌ وتفاعلٌ حضاري:

كان تطور الفكر السياسي ونظم الحكم عبر التاريخ بطيئًا جدًا، فخلال المدة بين القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الرابع عشر الميلادي وقسمٌ كبيرٌ من العالم لا يزال يُحكم بنموذج الحاكم الإله أو نصف الإله! مع غيابٍ كاملٍ لأبسط المبادئ والقيم الإنسانية والسياسيةً كالحرِّية والعدالة والمساواة وحقوق الشعوب في المشاركة السياسية أو المشاركة العادلة في الثروات، ولم يخرج عن هذا النموذج سوى استثناءات محدودة على امتداد التاريخ[٥]، وكان أبرزَ استثناءٍ هو النموذج السياسي الإسلامي الذي عَرَف مبكِّرًا مبدأ رقابة الأمة على الحكام، وقدّم

---

(١) ستتكرر كلمة «النموذج» في ثنايا المقال، والمقصود بها: المثال السياسي الذي اكتملت أركانه من جهة النظرية السياسية والنظام السياسي والتجربة العملية، فحين أقول النموذج اليوناني مثلًا، فهو يمثّل نظرية سياسية متكاملة، وكذلك هو نظام سياسي له مؤسساته، كما أنه تجربة عملية تاريخية.

(٢) مدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي، حامد ربيع: (٤٩/٢).

(٣) اليوطوبيا أو الطوباوية، أو ما يعرف باسم أدب المدينة الفاضلة، هي فلسفة مثالية حالمة تقوم على تخيل مجتمع مثالي لا وجود له تمحى منه الشرور والنقائص البشرية ويزخر بأسباب السعادة.

(٤) إدارة المشاريع السياسية في عالم عربي متحول، د.بشير زين العابدين: ص (٨٩).

(٥) وهذه الفترات: فترة العصر الذهبي لليونان لا سيما فترة الحكم الديمقراطي في أثينا، وكذلك في العهد الجمهوري للإمبراطورية الرومانية.

منظومةً جديدةً في ترسيخ القيم السياسية الكبرى كالعدالة والحرية والشورى، وأعاد تشكيل المجتمع بطريقةٍ جديدة متجاوزًا النظام الطبقيَّ الراسخ في الحضارات الأخرى، كما قدّم ثقافة جديدةً في مجال الحروب وحقوق الشعوب في الدول المفتوحة مما أسَّس لمرحلةٍ جديدة في مجال العلاقات الدولية، يقول د.حامد ربيع: «جميع علماء العلاقات الدولية المعاصرة وبصفةٍ خاصّة في إيطاليا وألمانيا يسلّمون بأنَّ التراث الإسلامي أدّى دورًا خطيرًا في بناء تقاليد التعاملِ الدَّولي في العصور الوسطى»[١].

ومع كل ذلك نجد إقصاءً للنموذج السياسي الإسلامي من المشهد الفكريِّ السياسي تمامًا، ومع الاقتصار على الحديث عن النموذج اليوناني في تنكُّر غريب لعملية التواصل الحضاري بين الحضارات[٢]، وفي الحقل التعليمي تُدرَّس النظرية السياسية والنظم السياسية عند أغلب الحضارات القديمة ولا نجد للنموذج السياسي الإسلامي أيَّ ذكرٍ!!

ولعلَّ ذلك يرجع إلى سببين رئيسين: «الأول: ينبع من أنَّ الفكر السياسي الإسلامي ارتبط من حيث مقدماته وعناصره بالفكر الديني أو بعبارةٍ أدقّ بمفهوم الخلافة[٣] فكيف يتقبّل العالم الغربي الاعتراف بعلاقة التأثير والتأثر، وهو يرفضُ المفاهيم الدينية المرتبطة بالخلافة وما ينبع عنها من عناصر عقيدية أخرى؟ ثم يأتي فيكمل ذلك متغيرٌ آخر فرضته الحركات الاستعمارية والتعامل من منطلق القوة من جانب الحضارة الأوروبية مع المجتمعات الإسلامية ابتداء من القرن الثامن عشر»[٤].

نظرة نقدية مقارنة بين النماذج السياسية الحضارية والنموذج السياسي الإسلامي:

النموذج الأول: النموذج اليوناني: نموذج المدينة الدولة (٧٠٠ ق م-٥٠٠ ق م):

حيث تمركز هذا النموذج حول صفةٍ أساسية، وهي تألُّق الفكر المثالي المجرَّد على حساب الحركة، تألُّق فكريٌ في نطاق «الأخلاقيات السياسية» من جانب، ثم فشلٌ حركيٌ في تقديم النماذج الصالحة لحلِّ مشكلات المجتمع اليوناني وإيجاد الدولة الموحَّدة المعبِّرة عن حقيقة العصر وآمال الجماعة السياسية من جانب آخر[٥].

المعالم الرئيسية للنموذج:

أولًا: النظام الديمقراطي: وتعتبر أثينا هي التجربة الرائدة للديمقراطية اليونانية، حيث طُبقت فيها تجربة الحكم الديمقراطي ووصلت إلى مرحلة لم تصل إليها بقية المدن اليونانية[٦].

لكن الديمقراطية في أثينا كانت ناقصةً أو هي ديمقراطيةٌ أرستقراطية، فهي وإن كانت تقوم على مبدأ المساواة القائم على المشاركة في نقاش الأحكام في الجمعية العامة للشعب، إلا أنَّ المساواة لم تكُن على حقيقتها، فحقوق المشاركة السياسية كانت محكومةً بنظام الطبقات الذي يقسم المجتمع إلى طبقات، فكانت المساواة في الحقوق ضمن الطبقة التي لها حقُّ المشاركة، وهي طبقة الأشراف والأحرار، أو وفق ما يملكه الفرد من الثروة. كما أنَّ حقَّ المشاركة السياسية كان مقتصرًا على الذكور دون الإناث[٧].

---

(١) مدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي: (٢٦٦/١)، وقد أشار أيضًا إلى الاتجاه الآخر الذي يتجاهل بشكل كلي الدور الذي قامت به الحضارة الإسلامية في بناء تقاليد التعامل الدولي.

(٢) يذكر عدد من الباحثين منهم جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث في كتابهم المشهور «تراث الإسلام» أن أوروبا لم تعرف النصوص اليونانية إلا من خلال ترجمات علماء المسلمين، كما ترجموا أعمالًا كثيرة لابن رشد وابن سينا والفارابي وابن خلدون؛ بل إن فكرة الديمقراطية الغربية وفكرة قانون الحرب والسلام إنما أينعت وتكاملت بفضل التواصل مع التراث الإسلامي من خلال فلسفة القديس توماس الأكويني الذي تتلمذ على يد ألبرتس الكبير والذي بدروه أتقن اللغة العربية وعاش في جامعات صقلية ونقل كنوز التراث السياسي الإسلامي. ينظر: تراث الإسلام، لجوزيف شاخت وبوزورث: (٣٨/١)، ومدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي، د.حامد ربيع: (١١٤/١-١١٧).

(٣) المقصود بالخلافة هنا النظام السياسي الإسلامي الذي يلتزم مبدأ سيادة الشريعة.

(٤) مدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي، د.حامد ربيع: (١١٤/١).

(٥) المرجع السابق (١١٠/١).

(٦) شهدت المدن اليونانية- المدينة اليونانية وحدة سياسية مستقلة تمامًا عن غيرها- تطورًا في نظام الحكم يكاد يكون ثابتًا من الملكية إلى الأرستقراطية إلى الحكم الفردي المطلق إلى الديمقراطية، عدا اسبرطة فهي وحدها من بين المدن اليونانية احتفظت بتقليد ثابت من الاستمرار المتصل في نظام الحكم حيث ناصرت النظام الأرستقراطي، بينما ناصرت أثينا النظام الديمقراطي، وبقيت كلا المدينتين في تنافس شديد وصراع مرير ولّد حربًا قاسية أضرت بعامة بلاد اليونان، ينظر: تاريخ النظريات السياسية وتطورها، لحسن خليفة: ص (٨-٩)، و النظرية السياسية عند اليونان، لأرنست باركر: ص (١٤)، و النظم السياسية عبر العصور، د.محمد سعيد عمران وأحمد أمين سالم، محمد علي القوزي: (٧٣).

(٧) النظم السياسية عبر العصور، د.محمد سعيد عمران وأحمد أمين سالم، محمد علي القوزي ص (٨٠)، النظرية السياسية عند اليونان، أرنست باركر ص (١٦)، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده، د.حورية توفيق مجاهد: ص (٦٤).

النموذج اليوناني: تألُّقٌ فكريٌ في نطاق «الأخلاقيات السياسية» ثم فشلٌ حركيٌ في تقديم النماذج الصالحة لحلِّ مشكلات المجتمع اليوناني وإيجاد الدولة الموحَّدة

ثانيًا: النظام الطبقي: حيث كان ينقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات تختلف فيما بينها اختلافًا كبيرًا في الحقوق والواجبات:

- المواطنون أو الأحرار: وهم من تجري في عروقهم دماء أثينية فقط، وهذه الطبقة انقسمت إلى قسمين: أشراف وعامة، وعندما تم إصلاح الدستور جُعل الأساس مقدار الثروة التي يمتلكها الفرد[١]، وكانت هذه الحقوق تستبعد الإناث من هذه الطبقة.
- الأجانب: وهؤلاء ليس لهم صفة المواطنية، ولم يكن لهؤلاء حق الاشتراك في الحياة السياسية.
- العبيد: وهم الأرقاء.

وكان فلاسفة اليونان ينظرون إلى أن هذا التمايز خِلْقي، بمعنى أن الله خلق قسمًا من البشر للخدمة وآخرين للسيادة والحكم.

وكان أبرز ما انتُقد به هذا النموذج:

- **أولًا:** الطرحُ الخيالي الطوباوي وهو ما بات يعرف بأدب المدينة الفاضلة، فالمدينة الفاضلة تشكّل وحدةً سياسيةً نموذجيةً لسعادة البشر، وهذا الطرح حكَمَ عليهم بالبقاء داخل محدودية المدينة، ولم يستوعب المتغيرات التي طرأت على نموذج الدولة، وهو الذي تنبهت له الدولة الرومانية لاحقًا حيث بات واضحًا أنه نموذج فرضته طبيعة الجزر والمدن اليونانية المتباعدة.
- **ثانيًا:** النظام الديمقراطي في أثينا كان في حقيقته يقوم على أساس أرستقراطي حيث كان الأشراف هم المتنفِّذين الحقيقيين، كذلك لم يستطع النظام الديمقراطي منع ظاهرتين بارزتين: تسلط الغوغائية، وهو ما دفع أرسطو لنقد الديمقراطية واعتبارها حكم الغوغائية، والظاهرة الثانية هي استبداد المتنفذين والتفافهم على الديمقراطية، فلم تستطع الديمقراطية مثلًا أن تمنع التفاف بعض الكارهين لسقراط على الجمعية العامة واستصدار حكم بإعدامه.
- **ثالثًا:** لم يستطع نموذج المدينة اليوناني أن يقدم حلًا يحقق الوحدة السياسية للمدن اليونانية، على الرغم من وحدة العرق واللغة والعادات، فقد عاشت تلك المدن تنافسًا وصراعًا شديدًا لا سيما بين أسبرطة وأثينا نجَمَ عنه حرب البلوبونيز[٢] التي أضرت بالمدن اليونانية كثيرًا.

رسخ النموذجُ الروماني الحكم المطلق بنظرية التفويض الإلهي، وجعل الإمبراطورَ مصدر القوة ومنبع التشريع

النموذج الثاني: النموذج الروماني:

طغيانُ الحركة[٣] هو المحور الوحيد الذي يسيطر على الممارسة الرومانية[٤]، حيث أعطى الرومان أولوية كبرى للعمل قبل أيِّ شيء ومن هنا كان الروماني بعيدًا عن الفكر والتأمل بقدر قربه من العمل، لذا لجأ الرومان إلى الاستعانة بالأفكار اليونانية لحلِّ المشاكل التي واجهتهم[٥].

المعالم الرئيسية للنموذج:

أولًا: شكل نظام الحكم: عرفت روما صورًا متعددة من أشكال الحكم كان أبرزها ثلاثة: الملكية المطلقة، والجمهورية، والإمبراطورية، وكان النظام الملكي أولَّ نظامٍ عرفته روما[٦].

---

(١) ينظر: تاريخ النظريات السياسية وتطورها، حسن خليفة: ص (١٣).

(٢) هي حرب ضارية بين المدن اليونانية استمرت قرابة ربع قرن منذ ٤٢١ حتى ٤٠٤ ق م انتهت بهزيمة أثينا على يد أسبرطة، كما أدت إلى اختفاء العديد من المدن اليونانية من الخريطة السياسية (تاريخ الحضارات القديمة، إشراف ف.دياكوف- س.كوفاليف، ترجمة نسيم اليازجي: (١/ ٣٥٥).

(٣) المقصود بالحركة هنا: النزعة العملية المفرطة على حساب التأمل والفكر، فكان الروماني يوصف بأنه عندما يتخلى عن السيف فهو إنما يفعل ليمسك بالمحراث، وكانوا يعيبون على من يشتغل بالفلسفة. ينظر: تاريخ الأفكار السياسية، جان توشار: (٩٧/١).

(٤) مدخل إلى دراسة التراث السياسي الإسلامي، د.حامد ربيع (١/١١٠).

(٥) النظم السياسية عبر العصور، د.محمد سعيد عمران وأحمد أمين سالم، محمد علي القوزي: ص (١٣٢)، وتاريخ الأفكار السياسية، جان توشار: (١/ ٩٥).

(٦) النظم السياسية عبر العصور، د.محمد سعيد عمران وأحمد أمين سالم، محمد علي القوزي: ص (١٤٠-١٤١).

ثم النظام الجمهوري الذي امتدَّ من ٥٠٩ق.م حتى عام ٢٧ق.م، جعل الانتخاب أساس اختيار الحاكم وحدَّد مدَّة حُكمه[١].

وأما العهد الإمبراطوري فقد كان حُكمًا فرديًا مطلقًا، وكان الإمبراطور يختار خليفته، وليس أدلَّ على ذلك مِن فعل الإمبراطور قسطنطين حين جمع أبناءه عند دنو أجله عام ٣٣٥م، وقسم بينهم الإمبراطورية كما يقسم الرجل تركته[٢]، ونظر الجميع إلى الإمبراطور بأنه مصدر القوة ومنبع التشريع، فحلّت نظريةُ الحكم بالتفويض الإلهي محلَّ نظرية: الأمة مصدر السلطات[٣].

ثانيًا: التشريع والقانون: كانت القوانين الرومانية الأولى خليطًا من الأوامر الدينية والعادات المرعية والتقاليد الأهلية، وظلت على حالها هذه حتى دوّنت حوالي سنة ٤٥٠ق م في الألواح الاثني عشر، ولم تكن تغيَّر أو يضاف إليها شيء إلا من خلال الجمعيات العمومية، وبهذا تقرَّر المبدأ بأنَّ القانون الروماني يمثل إرادة الدولة، واتخذته أوروبا أساسًا لنظامها القضائي بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية[٤].

وكان أبرز ما انتُقد به هذا النموذج:

أولًا: ترسيخ الحكم المطلق بنظرية التفويض الإلهي للإمبراطور، وبذلك رجع إلى نماذج الحكم القديمة التي تجعل الحاكم إلهًا[٥].

ثانيًا: الإغراق في العمل على حساب التأمل والتفكير في مشكلات واقعهم السياسي والمجتمعي، مما أورث قصورًا كبيرًا في ابتكار أو تطوير حلول ونظريات لمشكلاتهم.

النموذج الثالث: النموذج الكاثولوكي:

قامت الدولة البابوية على أنقاض الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦م.

ويمكن تلخيص طبيعة نموذج الدولة البابوية بردّها إلى قاعدة واحدة أساسية هي: التعصب الديني المطلق، والسلوك الاستفزازي، والذي سيتبلور في علاقة المشرق بالمغرب باسم الحروب الصليبية[٦].

المعالم الرئيسية للنموذج:

أولًا: طبيعة نظام الحكم: ثيوقراطي، أي الحكم باسم الإله، فكان البابا هو مصدر السلطة، وهو من يبارك تعيين الإمبراطور، وهو من يملك إصدار قانون الحرمان ويجعل الشعب في حلٍّ من أي ولاء أو طاعة له.

ثانيًا: السلوك الاستبدادي: فأمَّا على المستوى الداخلي ففي مواجهة معارضيها من النظم الملكية والإقطاعية الذين رفضوا الانضواء تحت وصاية البابا، وكذلك في مواجهة جهود الإصلاح التي كانت تطالب بإصلاح نظام الكنيسة وتعارض طريقة هيمنتها وبسط نفوذها، وتُعدّ محاكمُ التفتيش التي أقامتها لسحق معارضيها أكبر وصمة عار تدمغ القرون الوسطى في أوروبا. وأمَّا على الصعيد الخارجي فكانت الحروب الصليبية التي اجتاحت المشرق بمباركةٍ من الكنيسة.

ثالثًا: تدهور الفكر السياسي: كانت فترة حكم الدولة البابوية مرحلة انحطاط للفكر السياسي سواء من حيث الأفكار والنظريات أو من حيث القيم السياسية والإنسانية، مما ولّد حركات احتجاج ومطالبة بالإصلاح، كان أبرزها: حركة مارتن لوثر، وحركة كالفِن، مما أدى إلى سقوط هيبة الكنيسة وأحدث هزة عنيفة مهدت لكثير من التغييرات على مستوى أوروبا فيما بعد[٧].

> **يرجع نموذج الدولة البابوية إلى قاعدة واحدة أساسية: التعصب الديني المطلق، والسلوك الاستفزازي، الذي تبلور في علاقة المشرق بالمغرب باسم الحروب الصليبية وفي مواجهة حركات الإصلاح الداخلية**

(١) المرجع السابق: ص (١٤٣).
(٢) قصة الحضارة، ول ديوارنت، الدولة البيزنطية: ص (١١).
(٣) تاريخ النظريات السياسية وتطورها، حسن خليفة: ص (٣٨).
(٤) المرجع السابق: ص (٤١-٤٢).
(٥) تاريخ النظريات السياسية وتطورها، حسن خليفة: ص (٤١).
(٦) مدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي، د.حامد ربيع: (١/ ١١٠).
(٧) ينظر في الكلام على جهود الإصلاح الديني عند لوثر وكالفن: تاريخ الأفكار السياسية، جان توشار: (١/ ٣٧٥).

مقارنة بين النماذج السياسية الحضارية

النموذج	المعالم	الانتقادات
النموذج اليوناني	١. الديمقراطية الارستقراطية ٢. النظام الطبقي	١. الطرحُ الخيالي الطوباوي ٢. ديمقراطية ارستقراطية ٣. فشل نموذج المدينة الدولة في تحقيق الوحدة السياسية
النموذج الروماني	١. الإمبراطور مصدر القوة ومنبع التشريع ٢. القانون يمثل إرادة الأمة	١. الحكم المطلق بنظرية التفويض الإلهي للإمبراطور ٢. الإغراق في العمل على حساب التأمل في مشكلات الواقع
الدولة البابوية	١. نظام حكم ثيوقراطي ٢. السلوك الاستبدادي ٣. اضمحلال الفكر السياسي	١. السلوك الاستفزازي والتعصب المطلق ٢. إعادة مفهوم الحكم الإلهي
الدولة الحديثة	١. الرابطة القومية والمواطنة ٢. سيادة الحقوق الفردية ٣. سيادة القانون ٤. علمانية الدولة	١. علمنة الوجود ٢. تغوّل الدولة على المجتمع ٣. جعل القومية الهوية الجامعة ضمن وعاء علماني

وكان أبرز ما انتُقد به هذا النموذج:

أولًا: السلوك الاستفزازي والتعصب المطلق: فقد كان للكنيسة عدَّة أساليب في قمع المخالف، كالحرمان واللعنة، ولم يقتصر الحرمان على أفراد الشعب، بل يشمل الملوك والأمراء، كما يشمل مجتمعات كاملة أحيانًا، فمثلًا عندما أصدرت الكنيسة قرار الحرمان على روبرت الثاني ملك فرنسا سنة ٩٩٨م -لزواجه من ابنة عمه لأنهم كانوا يعدّونها ساحرة- تركه جميع رجال حاشيته وخدمه(١).

كما كانت محاكم التفتيش التي أسسها البابا لوسيوس الثالث ثم أنوست الثالث سنة ١٢١٥م أبشعَ مثال على هذا السلوك الاستفزازي، وقد اتبعت أساليب رهيبة في التعذيب والقتل، والتي امتدَّت ممارساتها لتشمل إيطاليا وفرنسا وألمانيا وإنكلترا وصقلية والمجر والبلاد السلافونية، بل وصل أثرها إلى بيت المقدس(٢).

أما على الصعيد الخارجي فتمثّل بالحروب الصليبية ضد العالم الإسلامي، وضد الدول التي ساندت حركات الإصلاح الديني.

ثانيًا: إعادة مفهوم الحكم الإلهي: وبدأ التقرير لهذا المفهوم مبكرًا منذ كتب أوغسطين كتابه «مدينة الله» وقسم العالم إلى مدينتين: المدينة الأرضية، ومدينة السماء مدينة الله، والأولى تابعة للثانية والتي لها السلطان الحقيقي(٣).

وكذلك نظرية «السَّيفين» التي تقرر وجود سيفٍ مادي وآخر روحي، وأن سلطة السيف المادي خاضعة لسلطة السيف الروحي، فصار البابا بالسيف الروحي هو صاحب السلطة الفعلية على الإمبراطور(٤).

---

(١) البابوية وسيطرتها على الفكر الأوروبي، د.أحمد علي عجيبة: ص (٦١).

(٢) ينظر: محاكم التفتيش، إسحاق عبيد: ص (٣) فما بعد، البابوية وسيطرتها على الفكر الأوروبي، د. أحمد علي عجيبة: ص (٦٤).

(٣) تاريخ الأفكار السياسية، جان توشار: (١٦٨/١)، و تاريخ النظريات السياسية وتطورها، حسن خليفة: ص (٥٦).

(٤) ينظر في نظرية السيفين: تاريخ الأفكار السياسية، جان توشار: (١/ ٢٦٧).

قامت الدولة الحديثة بعلمنة الوجود بجعل المادة أصل كل شيء، فلا اعتبار للحسابات القيمية أو الأخلاق في معادلاتها

النموذج الرابع: نموذج الدولة القومية الحديثة[١]:

الذي ظهر ردةَ فعلٍ على النموذج الكاثولوكي، ويقوم على أساس سيادة الفرد وجعل حُقوق المواطن تحتلُّ المحور الأول والأخير للوجود السياسي، وانتهى هذا النموذج بتأليه الدولة باسم حقوق الفرد[٢].

المعالم الرئيسية للنموذج:

أولًا: الدولة القومية ومفهوم المواطنة: عانت أوروبا كثيرًا بسبب قبضة الكنيسة الصارمة والمطلقة، وبرز التطلُّع نحو إيجاد رابطةٍ قومية جديدة بحيث تستقلُّ كل دولةٍ بشأنها وتختار الدين الذي تريد، وتكون مرجعيةُ المواطن فيها لدولته، وليس لأيِّ جهةٍ خارجها، وهذا ما حصل بعد انتهاء حرب الثلاثين عامًا التي مزقت أوروبا، وانتهت بمعاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨م، فبدأت مرحلةٌ جديدةٌ مهّدت لظهور الدولة القومية الحديثة وبرز معه مفهوم المواطنة[٣].

ثانيًا: سيادة الحقوق الفردية: كان موضوع الحريات المدنية والحقوق السياسية للأفراد أبرز المسائل بحثًا في القرن التاسع عشر، فتقرر أن حقوق الفرد سابقة على وجود الدولة، وأن للناس حقوقًا طبيعية يجب ألا تتدخل الحكومة فيها[٤].

ثالثًا: سيادة القانون: وهو خضوع الدولة وجميع مؤسساتها ومسؤوليها والمواطنين أمام الدستور بالتساوي، لضمان الحقوق ومنع التعدي على حقوق الآخرين؛ ويقوم على أساس الفصل بين السلطات الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية.

رابعًا: علمانية الدولة: ولعل البدايات المبكرة لذلك كانت عندما طرح ماكيافيلي أنَّ بناء دولة قوية يكون بفصل الدولة عن الكنيسة وكل المعايير التي تحكم المجالات الإنسانية، فالدولة الحديثة تقوم على قانون مادي خالص لا مجال فيه للمعايير الإنسانية والقيم، وكما يقول جان توشار في تاريخ الأفكار السياسية: «فالسياسة فن عقلاني في مبادئه تتقبل في حساباتها المبنية على قواعد مطردة جميعَ المعطيات التي تطالها التجربة، وهي فنٌّ وضعيٌّ كذلك؛ بمعنى: أنها ترفض كلَّ مناقشةٍ حول القيم والغايات»[٥].

وكان أبرز ما انتُقد به هذا النموذج:

أولًا: علمنة الوجود بجعل المادة أصل كل شيء، فلا وجود للحسابات القيمية أو الأخلاق في معادلة الدولة الحديثة، لذا فإنها تأخذ بكل ما يسهم في تقوية الإنتاج وتقدم الوطن ولو على حساب القيم أو الأخلاق، ومن هنا كان تطبيق هذا المبدأ بكل إخلاص وأمانة عند هتلر تجاه الفئات غير المنتجة في المجتمع كالكبار في السن أو أصحاب العاهات، فكان مصيرهم الإبادة ليس كنوع من الإرهاب والانتقام، بل مع الشكر والتقدير لهم لأجل إتاحة المجال للدولة أن تتقدم وتتطور[٦]، وبُني مفهوم المواطنة الصالحة في كل دولة بما يخدم مصالحها فقط، ولو أضرَّ بمصالح الآخرين.

ثانيًا: تغوّل الدولة على المجتمع: حيث تميزت الدولة الحديثة بإحكام سيطرتها على كامل تفاصيل المجتمع من ثقافة وتعليم وطب وغير ذلك، وبني هذا على أساس ما عرف بنظرية العقد الاجتماعي التي طورها جان جاك روسو بما يتوافق مع الديمقراطية، وتقتضي هذه النظرية إطلاق يد الدولة في المجتمع وتقرر أن الأفراد تنازلوا عن حقوقهم للدولة لتمثلها وتقوم بها مقابل حمايتهم وتحقيق أمنهم؛ مما كان له أثر على المجتمع

---

(١) القومية هنا تدل على الوعي الجماعي بالانتماء إلى هوية معينة ولغة وثقافة واحدة ضمن حدود جغرافية معينة (الوطن)، بحيث يلتقي أبناء هذا الوطن على هذه المصالح المشتركة، ويشكلون ولاء للوطن ومصالحه فوق كل شيء في العالم، وقد تكون القومية عرقيةً ولكنها ليست بالضرورة، وليس هو المفهوم الذي تقوم عليه الدولة الحديثة.

(٢) منقول بتصرف من كتاب: مدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي، د.حامد ربيع: (١/١٠٨-١١٠).

(٣) تاريخ النظريات السياسية، حسن خليفة: ص (٣٥٣-٣٥٤).

(٤) تاريخ النظريات السياسية، حسن خليفة: ص (٣٠١-٣٠٣)، الوسيط في النظم السياسية والقانون الدستوري، د.نعمان أحمد الخطيب: ص (١٠٤-١٠٧).

(٥) تاريخ الأفكار السياسية، جان توشار: (٢/ ٣٥٧).

(٦) ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، د.عبد الوهاب المسيري: (١/١٠٧)، ويقول: «النازية حينما أبادت اليهود والعجزة كانت تفعل ذلك لأنهم غير نافعين... فهذه المعسكرات منظمة بطريقة منهجية، تُحسب فيها حسابات المكسب والخسارة، وتُحسب المدخلات والمخرجات... لم يكن مسموحًا للجنود الألمان بإساءة معاملتهم، فعملية الإبادة تتم بحياد علمي رهيب».

بتقييده بحركة الدولة وتوجهاتها حتى انتهى إلى ما هو أشبه بتأليه الدولة.

ثالثًا: محاولة جعل القومية الهوية الجامعة ضمن وعاء علماني مع تجاهل البعد القيمي، وهو ما أدى إلى إنشاء ولاءات ضيقة تعزز الولاء الأعمى للدولة أكثر من الالتزام بالعدالة والإنسانية، وأدى الولاء للقومية إلى شيطنة الآخرين، والملاحظ أن صعود القومية زاد من وتيرة الحروب والصراعات في العالم.

خصائص النظرية الإسلامية مقارنة بما سبق من النظريات السياسية الحضارية:

ستركّز الدراسة هنا على خصائص النظرية السياسية الإسلامية بما يناسب سياق المقارنة السابقة، دون استقصاء جميع خصائصها هنا فهذا يحتاج بسطًا أوفر؛ ويمكن تلخيصها بما يلي:

أولًا: سلطان الأمة: والمقصود به أن الحق للأمة في اختيار الحاكم ومساءلته ومحاسبته بل وعزله إن لم يعد صالحًا، وهو ما يوافق ما اصطُلح عليه عند منظري السياسة المحدثين بـ «إرادة الأمة»[(١)]، ويُعد النظام السياسي الإسلامي بهذا سابقًا لكثير من النظريات الحديثة التي لم تستقر على مبدأ رقابة الأمة على الحاكم إلا في القرن الثامن عشر، فعندما كانت أوروبا في العصور الوسطى تتخبط تحت سطوة الأباطرة والبابوات كان الحاكم في النظام الإسلامي يقول: لقد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنتُ فأطيعوني وإن أسأتُ فقوّموني[(٢)].

ثانيًا: سيادة التشريع: وتعني أنَّ حقَّ التشريع ليس من حقِّ الشعب ممثَّلًا في منتخبيه، وليس من حقِّ الحاكم صاحب السلطة، إنَّ حقّ التشريع لا يمكن إلا للفقيه الذي له حقُّ الإفتاء، والفقيهُ ليس صاحب سلطةٍ ولكنه متخصصٌ بمعرفة استخراج الأحكام ضمن قواعد الشريعة ومقاصدها[(٣)]، وهذا يعطي الأحكامَ حياديةً ويحفظ استقلال التشريع من تجاذبات مصالح القوى المتنفِّذة، سواء من طرف السلطان أو المؤسسات الأخرى كالبرلمان مثلًا الذي يمثّل السلطةَ التشريعيةَ في النظام السياسي الحديث.

> **عندما كانت أوروبا في العصور الوسطى تتخبط تحت سطوة الأباطرة والبابوات كان الحاكم في النظام الإسلامي يقول: وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإنْ أحسنتُ فأطيعوني وإن أسأتُ فقوّموني**

كما أن وجود نصوص القوانين محددة بجزاءاتها يعد حصانةً كبيرةً للمجتمع من استبدادِ أيِّ سلطةٍ عليه، حيث «إن أول نصر ديمقراطي للمواطن في مواجهة السلطة هو الإعلان عن نصوص القانون التي تحكم الجزاءات وتحدد العقوبات»[(٤)].

ثالثًا: مبدأ الشورى: وهو محور الممارسة السياسية، والشورى مبدأٌ عام يُعبَّرُ عنه عند الممارسة السياسية من خلال مؤسسات خاصة وأنظمة تحدِّدُ اختصاصاته، وما سمّاه الفقهاء «أهل الحل والعقد» أو «أهل الاختيار» يمكن أن يقابِلَ البرلمانَ على أن يراعى فيه مبدأ سيادة التشريع[(٥)].

رابعًا: الحريات: تعتبر حريّة الأفراد في النظام السياسي الإسلامي أساس العلاقة بين الحاكم والمحكوم، بل إن الحفاظ على سلامة الحريات ضرورةٌ من الضروريات التي يجب رعايتها وحفظها، وهو ما يعبّر عنه اليوم باسم الحقوق الطبيعية الثابتة للفرد والتي يسبق وجودُها وجودَ الدولة، والحريات التي حفظها النظام الإسلامي هي: حرية الذات، وحرية المأوى، وحرية الاعتقاد، وحرية الرأي، وحرية التعليم، وحرية التملك، والحرية السياسية[(٦)]، وجوهر النظام السياسي الحضاري الإسلامي الدفاع عن حقيقة مزدوجة:

(١) النظام السياسي الإسلامي، د.عبد العزيز الخياط: ص (٧٤-٧٥)، النظريات السياسية الإسلامية، د.ضياء الدين الريس: ص (١٧٧).

(٢) النظريات السياسية الإسلامية، د. ضياء الدين الريس: ص (١٧٧)، و: النظام السياسي في الإسلام مقارنًا بالدولة القانونية، د.منير البياتي: ص (٢٥٠).

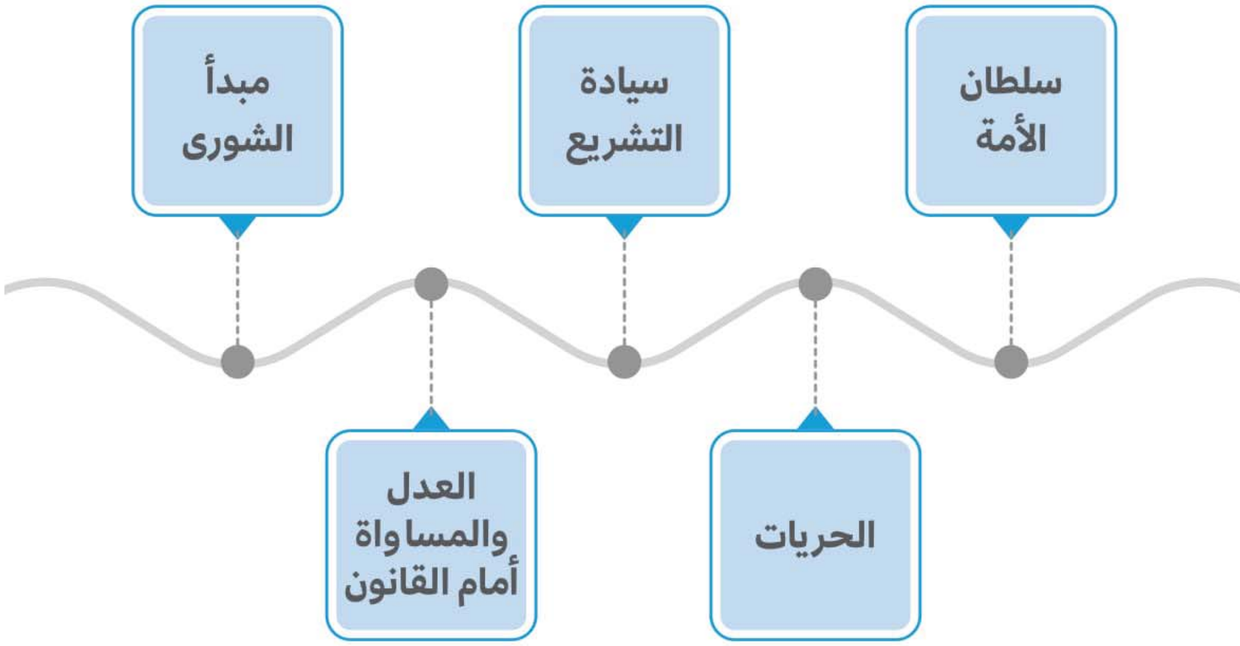
(٣) ينظر في ذلك: مدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي، د.حامد ربيع: (٣٧٢/٢).

(٤) المرجع السابق (٣١٢/١).

(٥) للتوسع في هذه النقطة: النظام السياسي في الإسلام مقارنًا بالدولة القانونية، د.منير البياتي: ص (١٧٩-١٨٥) وص (٢٠٦-٢٠٧)، و: النظام السياسي في الإسلام، نعمان عبد الرزاق السامرائي: ص (١٦٥) فما بعد، و: النظام السياسي الإسلامي، د.عبد العزيز الخياط: ص (٨٩) فما بعد.

(٦) النظام السياسي الإسلامي، د. عبد العزيز الخياط: ص (٤٣) فما بعد، و: النظام السياسي في الإسلام مقارنًا بالدولة القانونية، د.منير البياتي: ص (١١١) فما بعد.

النظرية السياسية الإسلامية



ضمان الكرامة الإنسانية، ورفض السلطة الواحدة المتحكمة[1].

خامسًا: العدل والمساواة أمام القانون:
العدالة المطلقة سمة لازمة للمجتمع الإسلامي، والمساواة فرعٌ عنها، وقد كفل النظام الإسلامي المساواةَ للأفراد:

- أمام القانون، فلا يفرَّق بين الأفراد على أساس اللون أو العرق أو غير ذلك.
- وأمامَ القضاء.
- وأمامَ وظائف الدولة ليس من جهة كونه حقًا للأفراد، وإنما من جهة كونه تكليفًا من جهة الدولة، وشرطهُ القوة والأمانة.
- والمساواة في التكاليف والأعباء العامة فلا تفريق مثلًا في الحقوق أو ما يلزم من الدفاع وواجب الجهاد وغير ذلك من التكاليف والأعباء[2].

وأخيرًا:

فهذا عرضٌ موجزٌ لخصائص النظرية السياسية الإسلامية في سياق مقارنتها بالنظريات السياسية الحضارية، وفيه عدة مواضع تحتاج لتخصيصها بجهود بحثية، كدراسة الإسهام الحضاري للنظرية السياسية والخبرة السياسية الإسلامية في إثراء الخبرات السياسية الحضارية في العالم، وعرضِ ما تميزت به الخبرة السياسية الإسلامية من ثراء نُظُمي، والتمييز بين النظرية والتجربة التاريخية، إذ يغلب على الأولى التجريد بينما يعتور الثانيةَ كثيرٌ من نوازع النفس البشرية، وإنما السؤال المعياري هنا هو قابليتها للتطبيق، للتمييز بين الفكر الطوباوي والتنظير الواقعي.

> **جوهر النظام السياسي الحضاري الإسلامي هو الدفاع عن حقيقة مزدوجة: ضمان الكرامة الإنسانية، ورفض السلطة الواحدة المتحكمة**

(١) ينظر: مدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي، د.حامد ربيع: (١/ ٣١٨).
(٢) ينظر: النظريات السياسية الإسلامية، د.ضياء الدين الريس: ص (١٤٧) فما بعد، و: النظام السياسي الإسلامي، د.عبد العزيز الخياط: ص (٨٧-٨٨-٨٩).



وصايا لقمان.. وقفات مع المضمون والأسلوب

د.عمر النشيواتي(*)

لقمان سمِّيت سورةٌ من سُوَر القرآن الكريم باسمه مع أنَّه ليس من الأنبياء على الأرجح، مما يدلُّ على مكانته العظيمة التي خلَّدها الله تعالى في كتابه الكريم، وصدّر لها بوصفه بالحكمة، وسرد فيها وصاياه التي جمعت بين العلم والتربية والحكمة والعبادة، مع تعدُّد الأساليب ودقّة المعاني، وهذا المقال يقف وقفات متأنيةً مع مضمونها وأسلوبها

تبقى وصيةُ القرآن هي الوصية الأحكم والأعظم مطلقًا.

وحينما يؤتي الله الحكمة عبدًا من عباده، ويُثني عليه بها، ويحكي لنا شيئًا من مواعظه ووصاياه فلا شك أنه سيكون فيها تمام الحكمة، كيف إذا أُضيف إلى ذلك أن تكون تلك الوصية من أب لابنه، ووصية الوالد لوالده هي أصدق ما يكون ولا تُتهم إطلاقًا إذ إنه «يُوصِي وَلَدهُ الَّذِي هُوَ أَشفَقُ النَّاس عَلَيه وَأَحَبهُم إِلَيه، فَهُوَ حَقِيقٌ أَن يَمنَحَهُ أَفضَلَ مَا يُعرَفُ»[1]. كيف إذا علمت أنها وصلت إلينا بوحي من الله إلى الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ! عندها سيجتمع لك في تلك الوصايا الصدق مع العلم والحكمة والصحة، لتُنصت إلى درر الحكمة وكُلُّك تسليم ويقين بصحتها وكمالها وعظمتها.

تقف هذه المقالة مع وصايا لقمان الحكيم لابنه، التي تميزت بتكاملها وشمولها لأصول الشريعة من عقيدة وعبادة، وصلاح قلبٍ، والأخلاق الظاهرة والباطنة، كما أن هذه الوصايا تميزت بتعدد الأساليب والوسائل التي استعان بها لقمان لإيصال تلك المضامين العظيمة على أكمل وجه، وذلك من الحكمة التي أوتيها لقمان وهي لنا محل اقتداء واهتداء، ولن يكون الوقوف مع تلك الوصايا الجليلة وقوفًا تفصيليًا مع ألفاظ الآيات ومفرداتها؛ فهذا قد أورده المفسرون في كتبهم، إنما هي وقفات وتأملات في ظلال تلك الوصايا وأفيائها وذلك من خلال محورين رئيسين:

- وقفات مع مضمون تلك المواعظ والوصايا.
- وقفات مع الأساليب والوسائل التربوية المستخدمة لإيصال تلك المواعظ والوصايا.

(*) طبيب، وكاتب مهتم بالقرآن وعلومه.

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/٣٣٦).

تميزت وصايا لقمان بتعدد الأساليب والوسائل التي استعان بها لإيصال المضامين العظيمة على أكمل وجه، وذلك من الحكمة التي أوتيها، وهي لنا محل اقتداء واهتداء

وقبل الحديث عن تلك الوصايا، هذه بعض الوقفات المختصرة مع صاحب الوصايا وابنه:

جماهير أهل العلم على أن لقمان كان رجلًا صالحًا ولم يكن نبيًا، قال ابن كثير: «اختلف السلف في لقمان: هل كان نبيًا أو عبدًا صالحًا من غير نبوة؟ على قولين: الأكثرون على الثاني»(١)، ولعله أن يكون في حكاية الحكمة في الصالحين وعدم حصرها على الأنبياء تشويفٌ للنفوس لبلوغ تلك المنازل العلية وتعلّم الحكمة والتطلع لها، فلا تتوهم أنها بعيدة المنال فذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ثم إنَّ حكايةَ القرآن لشيء من أخبار الحكماء وأقوالهم، نموذجٌ حيٌّ لنا لنتعرّف على الحكمةِ الصحيحة، والحُكماءِ الحقيقيين في ميزان القرآن، فلا تنحرف البوصلة ويُقال لما ليس بحكمة: إنَّه حكمة، أو يُوصف بالحكمة مَن هم مِن غير أهلها وما أكثر تلك الدعاوى اليوم!

جاء في وصف لقمان أنَّه كان عبدًا حبشيًا أسمرَ البشرة من النوبة أو من سودان مصر، قصيرًا أفطسَ مشقَّق القدمين، وقيل إنَّه كان نجارًا(٢)، ولعلَّ في حكاية الحكمة ممن كانت هذه أوصافه لفتَ النظر للاهتمام بالعقول والمقول والمضمون والجوهر، لا المظاهر والأوصاف المادية والبهرج.

وهل كانت امرأةُ لقمان وابنُه على التوحيد أم على الشرك؟ لأهلِ العلم كلام في ذلك، قال القرطبي: «وذكر القشيري أن ابنه وامرأته كانا كافرَين، فما زال يَعظُهما حتى أسلما»(٣)، قال الطاهر بن عاشور: «وبه يزيد ذكر مجاهدة الوالدين على الشرك اتِّضاحًا»(٤). وبهذا لا تَترك مثلُ هذه الموعظة عذرًا لأحد أن يتعلَّل بانحراف الموعوظ مهما بلغ انحرافه فليس فوق الشرك ذنب، كما أن تلك الوصايا تضربُ لنا مثلًا حيًا في حُسن نتائجها وعظيم أثرها حيث نَقلت مَن نُصِحَ بها من الشرك إلى التوحيد، وفي ذلك مزيد إيمان بها وبفاعليتها وقوة أثرها.

المحور الأول: وقفات مع مضمون تلك المواعظ والوصايا:

بنظرةٍ شاملةٍ إلى المضامين الرئيسة التي وَعظ بها لقمان ابنَه يُلحظ أنَّه ضمَّنها عدَّة أبواب، فقد شمل في موعظته الوصيةَ بتصحيح العقيدة والقلب والعبادة والأخلاق الظاهرة والباطنة.

قال ابن عاشور: «وقد جمعَ لقمانُ في هذه الموعظةِ أصولَ الشريعة وهي: الاعتقادات، والأعمال، وأدب المعاملة، وأدب النفس»(٥).

كما أنَّها تضمّنت سِمات أهلِ الفوز الواردة في سورة العصر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، وتلك مِن جوامع الوصايا وأعظمها وأجلِّها، وفيما يلي سردٌ لتلك المضامين:

١. تصحيح الاعتقاد:

ابتدأ لقمان وصيّته لابنه بالتأكيد على تصحيح العقيدة إذ هي عمادُ الأمر وأُسُّه، وترتكز عليه سائر الأمور والوصايا، والتي لا صلاح للنفس إلا بها، وفي باب العقيدة أكَّد على ركيزتين رئيستين:

الأولى: التوحيد الخالص لله تعالى حيث حذَّر ابنه من الشرك وبين له قبحَه وأنَّه ظلم عظيم منافٍ لكلِّ حكمة وعدلٍ وإنصافٍ فقال: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

والثانية: اليقين بالحساب والجزاء في الآخرة فقال: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فبقدر استحضار العبد للآخرة يزداد قوة وهمة في السعي إليها، وبقدر نسيانها فإنه يلهو ويغفل عن العمل الصالح ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨] «وهاتان القضيَّتان أصلُ عقائد

(١) المرجع السابق (٣٣٣/٦).
(٢) جامع البيان، للطبري (٥٤٧/١٨-٥٤٨).
(٣) تفسير القرطبي (٦٢/١٤).
(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٦٠/٢١).
(٥) المرجع السابق (١٥٤/٢١).

مضمون وصايا لقمان الحكيم

تصحيح الاعتقاد

الوصية بالبِرّ وحسن اختيار القدوة

إصلاح القلب

تصحيح العبادة

السلوك الاجتماعي

إصلاح الأخلاق

الأخلاق غاية

الإسلام، وعمدة شعب الإيمان، ولا يستقيم إيمان عبدٍ كما لا يستقيم سلوكه إلا بالتوحيد الخالص واليقين الجازم بالحساب على كل صغيرة وكبيرة»[(١)].

٢. الوصية بالبِرّ وحسنِ اختيار القدوة:

لا يخفى عظيم حقِّ الوالدين على الابن؛ فإن الفِطَرَ والشرائع دلَّت عليه، ويكفي في بيان عظيم منزلة البرِّ أنَّ الله قَرَنه بتوحيده فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٤]، لذا كان من تمام الحكمة الوصية بالبر والإحسان والتأكيد عليه، وهو بابٌ عظيمٌ من أبواب الجنة؛ فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (الوالدُ أوسطُ أبوابِ الجنَّة؛ فحافِظ على ذلك إنْ شِئتَ أو دَع)[(٢)].

> جمعَ لقمانُ في مواعظه أصولَ الشريعة: من الاعتقادات، والأعمال، وأدب المعاملة، وأدب النفس
>
> الطاهر بن عاشور (بتصرف)

كما أوصاه باتِّباع سبيلِ أهل الإنابة واختيار القدوة الحسنة والصُّحبة الصالحة، وفي ذلك من التأكيد على أهمية تهيئة المحيط الصالح والصاحب المنيب لله كما لا يخفى!

٣. إصلاح القلب:

في هذا الباب كانت الوصية بالمراقبة الدائمة لله تعالى، إذ هو قادر على أن يأتي بمثقال حبة من خردل من أعمال العبد، وإن كانت في صخرة أو في السماوات أو في الأرض[(٣)]، وأكد ذلك له بأن ذكّره بلطف الله وإحاطته بكل شيء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، كما تكرر في الوصايا تأكيده على تعليق قلب ابنه بالله تعالى بتكرار ذكر شَيء من صفاته وأسمائه الحسنى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾، ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

وليس خافيًا عليك أهميةُ القلب وإصلاحه فهو ملك الأعضاء وسيّدها، قال ﷺ: (ألا وإنَّ في الجسدِ مُضغَةً، إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسد كُلُّهُ، وإذا فَسدت فَسدَ الجسدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلب)[(٤)]، فلا صلاحَ لسائر العمل إلا بصلاح القلب، وبفساده يفسُد

(١) زاد الدعاة، لعبد المهيمن طحان ص (١٢٤).
(٢) أخرجه ابن حبان (٤٢٥).
(٣) قوله تعالى: ﴿يأتِ بها الله﴾ أي: يَعلمها الله، وقيل: يُظهرها، أو يأتِ بها الله في الآخرة للجزاء عليها.
(٤) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

سائر العمل، وهو سرُّ التفاضل والتمايُز الذي يحصل بين السائرين إلى الله مع اختلاف أعمالهم وعلومهم وأفهامهم، وكانَ النّبيُّ ﷺ يُكثرُ أن يقول: (يا مُقلِّبَ القلوبِ ثَبِّت قَلبي على دينك)(١)، وبقدر اهتمام المتربّي بصلاح قلبه يسبقُ في ميدان الصلاح والإصلاح، وكلُّ جهدٍ يخلو من العناية بلا تأكيدٍ على صلاح القلب هو عبثٌ وإفساد.

٤. إصلاح العبادة:

وفي باب العبادة أوصاهُ بإقامة الصلاة ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي: بحُدودها وفروضها وأوقاتها؛ إذ هي عمود الدين، ولا يصحُّ إيمان عبدٍ إلا بها، وهي أوّل ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، (وَالصَّلَاةُ نُورٌ)(٢)، وصلاحُ صلاة العبد صلاح لسائر عمله: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال ﷺ: (إنَّ أولَ ما يُحاسب به العبد يوم القيامة من عملِهِ صلاتُه، فإن صَلُحَت فقد أفلحَ وأنجحَ، وإن فَسَدت فقد خاب وخسر)(٣).

ولعلَّ من نافلةِ القول التأكيدُ على محورية الصلاة في التربية، وأنَّه بقدر تعلُّق الابن بها وسيطرتها على جوانحه وأولوياته، وتعمُّقه في استيعاب أحكامها ومسائلها ومقاصدها وتمرُّسه على ضبط تفاصيلها وإتقانها، بقدر ما يُرجى له صلاحٌ في سائر عمله وشؤونه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

٥. السلوك الاجتماعي:

وفي باب السلوك الاجتماعي أوصاه بالقيام بواجب الدعوة وإصلاح الناس ونشر الخير فيهم بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فقال: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: بِحَسَبِ طَاقَتِك وَجُهْدِكَ، وفي ذلك إشعار له بقيمته وأهميته ودفعه إلى الإيجابية والفاعلية في مجتمعه، كما أنّ حثّه على سلوك طريق الدعوة وإصلاح الناس دفعٌ له ليكون من صفوة الناس وخيرهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

> **أوصى لقمان ابنه بالقيام بواجب الدعوة وإصلاح الناس ونشر الخير فيهم بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وفي ذلك إشعار له بقيمته وأهميته ودفعه إلى الإيجابية والفاعلية في مجتمعه، وحثٌّ له ليكون من صفوة الناس وخيرهم**

ثم لما علمَ أنَّ الآمرَ بالمعروفِ والناهي عن المنكر، لا بدَّ أن ينالَه من الناس أذى، أمره بالصبر فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ والصبر هو ذروة سنام الأخلاق وأُسُّها الذي ترجع إليه جملة الأخلاق الفاضلة (وما أُعطيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصبر)(٤).

٦. إصلاح الأخلاق:

وفي باب الأخلاق والتعامل مع الآخرين أسس له قواعد في الأخلاق فبدأ بوصيته بتكميل باطنه وقلبه، فأمره بالتواضع ونهاه عن احتقار الناس وازدرائهم بالقول أو الفعل ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ كما حذره من الكِبْر والغرور ﴿ولا تمشِ في الأرض مرحًا﴾ فالتواضع رأس الفضائل، كما أن الكبر أم الخبائث.

ثم أوصاه بما فيه كمالُ ظاهره وسمته وأدب جوارحه، من القصد في المشي وغض الصوت وتلك علامة الحياء و(الحياءُ لا يأتي إلّا بخيرٍ)(٥).

قال ابن عاشور: «بعد أن بيَّن له آدابَ حُسن المعاملةِ مع الناسِ قَفّاها بحُسن الآداب في حالته الخاصة، وتلك حالتا المشي والتكلم، وهما أظهرُ ما يلوحُ على المرء من آدابه»(٦).

٧. الأخلاق غاية:

من المضامين التي جاءت في وصية لقمان بيانُ غاية الأخلاق وأنها قضية تعبُّدية أُخروية وليست مصلحية نفعُها دنيوي فحسب، وذلك أنَّه بعد وصيته لابنه بإصلاح أخلاقه ذكّره بالغاية منها فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ كذلك بعد وصيته بالبر بوالديه ذكّره بالمعاد والبعث للحساب فقال: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ وبهذا يؤسِّس له نظرةً صحيحة في غاية

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٠).
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣).
(٣) أخرجه الترمذي (٤١٣).
(٤) أخرجه البخاري (١٤٦٩).
(٥) أخرجه البخاري (٦١١٧) ومسلم (٦٠).
(٦) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢١/١٦٨).

الأخلاق حين علَّلها بحبِّ الله لها وكُرهِه لما يُضادُّها وأنه سيُجازي ويُحاسَب عليها، وأنها لا تُقصد لمجرَّد نفعها الدنيوي أو لقيمتها العقلية أو النفعية من جلب ثناء الناس كما هو في كثير الفلسفات الغربية البرجماتية، وغيرها من المدارس التي تنادي بنسبية الأخلاق أو التي تحكّم العقل المطلق على النقل في تحسين الأخلاق أو تقبيحها، وإن كان شيء من ذلك حاصلٌ تبعًا لا أصالة.

صدّر لقمان وصاياه بقوله: (يا بُني) وكررها مرارًا، وفي ذلك من استعطافه بالبُنُوّة وإشعاره بالشفقة عليه والمودة الخاصة له الشيء الكثير، وهي طريقةٌ مفيدةٌ في طلب حضورِ الذهنِ لوعيِ الكلام، وذلك من الاهتمام بالغرضِ

المحور الثاني: وقفات مع الأساليب والوسائل التربوية التي استخدمها لقمان لإيصال تلك المواعظ والوصايا:

١. التودد والتلطف في الخطاب:

ظهر ذلك في وصية لقمان حيث كان يُصدِّر وصاياه بقوله: ﴿يا بُنَيَّ﴾ ويكررها له مرارًا، وفي ذلك من استعطافه بالبُنُوّةِ وإشعاره بالشفقة عليه والمودة الخاصة له التي لا تخفى، وهي طريقة الأنبياء والمصلحين مع آبائهم وأبنائهم، قال الطاهر بن عاشور: «افتتاح الموعظة بنداء المخاطَب الموعوظ مع أن توجيه الخطابِ مُغنٍ عن ندائِه لحضوره بالخطاب، فالنداءُ مستعمل مجازًا في طلب حضورِ الذهنِ لوعيِ الكلام، وذلك من الاهتمام بالغرض المَسوقُ له الكلام كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف:٤] وقوله: ﴿يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ﴾ [يوسف: ٥] وقوله: ﴿إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ﴾ [المائدة: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ﴾ [مريم: ٤٢]»[(١)].

ولو عوّد الناصح لسانَه على مثل هذه الألفاظ مع كلِّ توجيهٍ وإرشاد لوجد لذلك أثرًا بالغًا واستجابة ولا أقل من أن يُقابل بالإحسان وحسن الرد والتلطف في الجواب.

٢. سهولة العبارة واعتماد التراكيب البسيطة والتوجيه المباشر:

وذلك ظاهر في أكثر وصاياه له كقوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾، ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾، ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾.

كما اعتمد أسلوبَ تلخيص الرسالة المقصودة بعباراتٍ واضحةٍ عند ذكر الصورة أو المثل، حتى لا يتشتَّت ذهن الابن؛ فبعد إيراد المثال على عظيم لُطف الله بذكر مثقال الحبة من الخردل؛ لخَّص المقصودَ له فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ وبعد تحذيره من تصعير الخدِّ والمشي مرحًا أفصح له عن مقصوده فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وهكذا.

ولا شك أنَّ للعبارة الواضحة والتوجيه المباشر وتلخيص الكلام دورًا مهمًّا في وضوح الرسالة المرادة ودوام أثر التوجيه وحفظه وطول الانتفاع به على الوجه الصحيح المراد، على عكس ما كان متكلفًا من الكلمات والوصايا فلا يُرجى منه نفع، بل ربما يُخطئ المنصوح فهمَه أو يَصعُب عليه حفظه وتذكره.

٣. التدرج في النصيحة والبدء بالأهم ثم المهم:

تبين ذلك جليًا من خلال عرضنا لمضمون موعظة لقمان ومحتواها في المحور الأول من هذه المقالة حيث بدأ بترسيخ العقيدة، ثم أوصاه بالبرّ ثم بما فيه صلاح قلبه من اليقين بالآخرة ومراقبة الله، ثم أوصاه بالصلاة والدعوة، وختم وصيته بتهذيب أخلاقه وسلوكه.

وما أحوجَ المربي والواعظ الناصح إلى مراعاة الأولويات وفقه ذلك والدُّربة عليه، ولا شكَّ أن مثل هذا يتطلّب مزيدًا من العلم والبصيرة ومعرفة مراتب الأشياء ومنازلها لتقديم الأهم والأفضل، والبداءة بالأولى والأعظم.

فَقه لقمان أولويات الدعوة وراعاها، فبدأ وصاياه بترسيخ العقيدة، ثم أوصاه بالبرّ، ثم بما فيه صلاح قلبه من اليقين بالآخرة ومراقبة الله، ثم بالصلاة والدعوة، وختمها بتهذيب الأخلاق

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٥٤/٢١).

٤. إيراد التعليلات التي تدعوه للاقتناع بما يقول:

ظهر ذلك حينما حذَّره من الشرك فقال منَفِرًا له عنه ومبينًا له قبحَه وبُعده كل البعد عن الحكمة: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ كذلك حينما أوصاه بالبر بوالديه علل ذلك بذكر شيء من الأسباب الفطرية التي تستحثه على البر وتستعطف قلبَه على والدته بشكلٍ خاص فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾.

وحينما دعاه إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى، شد من عزيمته وحفزه وشجع قلبه ليزيد من صبره وثباته على طريق الدعوة فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

وحينما أرشده إلى خفض صوته إذا تكلم، نفّره من ضد ذلك فقَال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ وغيرها من المواطن.

وهنا نلفت النظر إلى أهمية التعليل وذِكر المقاصد والمصالح والحيثيات وإيراد الشواهد وإيقاظ الفطرة والضمير وتحفيز عقل وقلب المنصوح بما يزيد من قناعته وتمسكه بما يُنصح به وعونًا له على الاستجابة، وألا تكون الوصايا مجرَّد أوامرَ جامدةٍ لا حياة فيها، والتي ربما تكون فتنةً للمنصوح، وسببًا في عصيانه ومخالفته.

٥. التجرد في النصيحة ولو على حساب نفسه:

ظهر ذلك في سياق وصيَّته بالبر بوالديه حيث قيَّد ذلك بذكر قاعدةٍ عظيمةٍ تُعرِّفه حدود تلك الطاعة، وأنها لا تكون في معصية الخالق فقال له: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ﴾ وتلك الوصية ستكون على حساب نفسه هو، لكن تجرُّده لله وصدقَه في نصيحة ابنه جعله يؤكِّد ذلك ويوضحه له تمام الوضوح، وفي ذلك من التجرُّد والصدق ما لا يخفى، ولمثل هذا التجرد الأثرُ البالغ في تربية المنصوح على التزام الحق والثبات عليه وتقديم حق الله على كلِّ حق ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا كونوا قَوّامينَ بِالقِسطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَو عَلى أَنفُسِكُم أَوِ الوالِدَينِ وَالأَقرَبينَ ﴾ [النساء: ١٣٥].

ونؤكِّد هنا على أهمية التربية على التجرُّد المطلق للحق، خاصة فيما يُتوقَّع فيه اختلاط النصيحة بشيءٍ من المصالح الشخصية والمنافع الخاصة بالناصح والموجِّه فيكون البيانُ في مثل هذه الأمور من تمام النصيحة وكمالها، ودليلُ تجرُّد الناصح التامّ وصدقه وإخلاصه.

٦. افتراض عقَبات تعرض للابن، واستباقها بحلول لمواجهتها:

ظهر ذلك في افتراض وقوع الشرك من والديه بل ومُجاهدتهما له على الوقوع فيه ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ﴾ -مع الأخذ بالاعتبار احتمال وجود شيءٍ من ذلك واقعًا من أمه كما أورَدْنا في المقدمة- وهنا أوصاه بما يجب أن يكون عليه حاله في مثل هذا فقال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

وهنا نلفتُ النظر إلى أهمية معايشة الناصح واقع المنصوح واستباق ما يُتوقع نزوله به بنصيحة وتوجيه ودلالة لكيفية التعامل معها، خاصةً فيما هو من كبار الأمور وعظائمها مما يتعلَّق بشبهات العقيدة والعبادة ونحوها، فضلًا عن مصالحه الدنيوية التي بها صلاح دنياه وحياته، ولتلك الوصايا من توطين المنصوح على الحق وتثبيته عليه ما لا يُقارَن بمن تُعرَض عليه الشبهات أو يقع فيها أو يُساوره فيها شيءٌ من الشكوك، ثم يحصل له التوجيه والتصويب بعدها -إن حصل- فلا يُعلم ما سيزول منها مما سيبقى!

> **اعتنى لقمان في وصاياه بتضمين الرسالة المرادة في ضرب المثل أو التمثيل بصورة، لما له من أثرٍ بالغٍ في وجدان المدعو ووقعٍ شديد في نفسه وحِسِّه، وهذا أقرب للفهم وأدعى للتذكُّر**

٧. تضمين الرسالة في صورة أو مَثَل:

ظهر ذلك في مواضع من وصيته: منها قوله: ﴿يا بُنَيَّ إِنَّها إِن تَكُ مِثقالَ حَبَّةٍ مِن خَردَلٍ فَتَكُن في صَخرَةٍ أَو فِي السَّماواتِ أَو فِي الأَرضِ يَأتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطيفٌ خَبيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]، وهنا بيَّن له رسالته أجملَ بيان، إذ ذكر له أنَّ السيئة أو الحسنة مهما كانت صغيرة بقدر وزن حبةٍ من خَرْدَل وكانت في بطن صخرةٍ لا يطّلع عليها أحد، أو كانت في أي مكانٍ في السماوات أو في الأرض فإنَّ الله يأتي بها يوم القيامة، فيجازي العبد عليها، إن الله لطيف لا تخفى عليه دقائق الأشياء، خبيرٌ بحقائقها وموضعها.

والمثل الآخر ضَرَبه في سياق تهذيب سلوك ابنه الظاهر وإصلاح خلقه وسمته وتنفيره من رفع الصوت، فصور له صورة مَن يرفع صوته بصورة قبيحة منكرة ينفر منها كل صاحب فطرة سوية فقَال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

الأساليب التربوية في نصائح لقمان

١. التلطف في الخطاب
٢. سهولة العبارة
٣. التدرج في النصيحة
٤. إيراد التعليلات المقنعة
٥. التجرد في النصيحة
٦. استباق العقَبات بالحلول
٧. تضمين الرسالة بصورة أو مَثَل
٨. تقديم نموذج للقياس عليه
٩. بناء عقلية تميز الحق من الباطل

وهنا نلفتُ النظر إلى أهمية اعتماد ضرب المثل أسلوبًا في التوجيه والتربية واختياره بعناية وبعدَ تأمُّلٍ ونظر، لما له من أثرٍ بالغ في وجدان المدعو ووقعٍ شديد في نفسه وحِسِّه، وبخاصة إن كان فيه عمقٌ في التمثيل والتشبيه وربما احتاج ذلك أحيانًا مزيدًا من الوقت والتأمل.

قال السيوطي: «ضربُ الأمثالِ في القرآن يُستفاد منه أمور كثيرة: التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريبُ المراد للعقل وتصويره بصورةِ المحسوس»(١).

٨. إعطاء النموذج الأقصى ليقيس عليه ما هو دونه من باب الأولى:

ظهر ذلك في المثل الذي ضربه: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ قال الطاهر ابن عاشور: «فذكرُ أدقِّ الكائناتِ حالاً من حيث تعلُّق العلم والقدرة به، وذلك أدقُ الأجسام المختفي في أصلبِ مكان أو أقصاه وأعزه منالاً، أو أوسعه وأشده انتشارًا، ليُعلَم أنَّ ما هو أقوى منه في الظهور والدنو من التناول أولى بأن يحيط به علم الله وقدرته»(٢).

٩. بناء العقلية المركبة التي تميز حدود الحق من الباطل:

ظهر ذلك عند وصيته بعدم طاعة والديه لو جاهداه على الشرك، وعندها حدَّ له حدًا دقيقًا فاصلًا حتى لا يتطرَّف في ذلك فيتوهَّم أنَّها مُفاصلةٌ مطلقةٌ في كلِّ شيء، عندما أوصاه بمصاحبتهما بالمعروف فقال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

ولا يخفى أنَّ شيئًا من التطرُّف الذي يُلحظ أحيانًا في بعض الناشئة أقصى اليمين أو أقصى الشمال وعدم وزن الأمور بميزانها الصحيح إنَّما هو لغيابِ مثل هذا التوجيه العميق الموزون، المحدود بحدود الشريعة والذي يُعطي كلَّ صاحب حق حقَّه بلا إفراط ولا تفريط، ولا مبالغة أو إجحاف وبمعرفة الحدود الدقيقة الفاصلة بين الحقوق والواجبات وبين المباحات والمحرمات.

خاتمة:

بهذا! تأمَّل في عظيم حكمة لُقمان، كيف وَعَظ ابنَه بهذه الوصايا العظيمة الجامعة ليجعل منه رجلًا موحدًا لله تعالى، بارًّا بوالديه، مراقبًا لله في سرِّه وعلانيَته، عابدًا لله مصليًّا، آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر صابرًا محتسبًا، متواضعًا خلوقًا مهذبًا، وبذل لإيصال تلك المضامين العظيمة أكملَ الأساليب والوسائل، مِن تلطُّفٍ في الخطاب وسهولةٍ في العبارة وتدرُّجٍ في النصيحة وتعليلٍ لما يريد منه وتمثيلٍ وغيره، ليَرسُم لنا بهذا صورةً متكاملةً في توجيهنا ونصيحتنا، فنلتفتَ للمضمون والأسلوب معًا، ولا يُغلَّب جانبٌ على حسابِ آخر، وليس بعدَ هذه الكمالاتِ من كمال، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء.

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (١٦٧/٢) نقلًا عن بعض العلماء.
(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٦٢/٢١).



دعوة

في الوصاية على الحق

د. إبراهيم الحسون(*)

تتسرَّب إلى لبعض في قمة عطائهم مشاعر وأفكار تَحرف مسيرتهم وتهدم كثيراً مما بُني، وتقضي على الإنجاز الذي تحقّق من خلالهم، ومن أبرزها الشعور بالوصاية الذي يغمط الحقوق، ويحيط النفس بحُجُب وحواجز تحول دون رؤية الحق، ويجعلهم يرون ما قد يقعون فيه من باطل حقاً لا يُمارى فيه.

«**الحق**» هو القيمة العظمى التي يبذل الشخص دونها كل شيء بما في ذلك المال والنفس، ومع أنها قيمة مُهمَّة! ولها طرق ووسائل شرعية للوصول إليها والتعامل معها، وقد نختلف في تفاصيلها أو في زاوية النظر إليها، إلا أن البعض صار يسلك مسلك (**الوصاية**) على هذا الحق؛ ويتخذه حجة لارتكاب كثيرٍ من أنواع الباطل في سبيل الوصول إلى ما يظنه حقًّا.

فكرة (**الوصاية على الحق، أو احتكاره**) ليست جديدةً، فقد تبنَّاها إبليس عندما احتكم لمنطقه في أنَّ النارَ خيرٌ من الطين؛ فرفض السجود لآدم عليه السلام، وتبنّاها فرعون إذ قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وتبنّاها اليهود عندما زعموا أنَّهم أبناءُ الله وأحباؤه، وأنَّه لا يمكن أن تكون النبوَّات في غيرهم، ولا نجاةَ للناس إلا عن طريقهم، فلمَّا ظهر الحقُّ في غير طريقهم كذَّبوا المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام وكادوا يقتلونه، وحرفوا التوراة، وكذا فعلوا عند ظهور دعوة الإسلام.

هذه الفكرةُ تحوَّلت إلى ظاهرةٍ مشاهَدةٍ هذه الأيام، كلٌّ بحسب نصيبه وموقعه، فردًا كان أو جماعة، فمن الوصاية على العمل السياسي إلى الوصاية على فريضة الجهاد أو حماية الدين، ولم تسلم من ذلك القضايا المركزية الكبرى، كالوصاية على الحريات وحقوق الشعوب.

(*) عضو مجلس أمناء المجلس الإسلامي السوري، الأمين العام لمعهد إعداد القضاة.

احتكار الحقِّ هو زعمُ شخصٍ أو جماعةٍ أنَّه يمتلك الحقيقةَ المطلقةَ والصواب الكامل في آرائه دون الطرف الآخر، وما يترتب على ذلك من سلوكيات في التعامل مع الآخرين

تحرير معنى احتكار الحق:

يمكن القول: إنَّ احتكار الحقِّ هو زعمُ شخص أو جماعة أنَّه يمتلك الحقيقة المطلقة والصواب الكامل في آرائه دون الطرف الآخر، وما يترتب على ذلك من سلوكيات في التعامل مع الآخرين[١].

وهو بهذا المعنى ليس مجرَّد قناعةٍ بصحة منهجه وطريقه المتَّبَع، بل هو اعتقاد الحقِّ الخالص في جميع المسائل وما عداه هو الباطل، دون ترك أيِّ قدرٍ للآخرين في الاختلاف معه في رؤيته تلك.

وقد يكون المخالف ممَّن يتَّفقُ معه في المنهج عقيدة أو مذهبًا فقهيًّا، لكنَّه مخالف في بعض المسائل أو التطبيقات.

دوافع الوصاية على الحق:

للوصاية على الحق دوافع وأسباب، من أهمها:

١. **الكِبر**: وهو من أعظم الخطايا التي يُبتلى بها المخلوق؛ لدرجة أن النبي ﷺ عرَّفه تعريفًا دقيقًا، فجعل معناه الإعراضَ عن الحقِّ والتعالي على الخلق، فلا يمكن لصاحب الحق أن يكون متكبرًا، ومجرَّدُ تسلُّل هذه الصفة إليه يعني أنَّه حاد عن الطريق؛ قال ﷺ: (الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاس)[٢].

وذلك لأنَّ المتكبِّر يرى من صفاته وخصائله ما هو غير موجود عند غيره، وبالتالي فإنه يرى أنَّ عدم الوصاية على الحقِّ تعني التفريطَ به وضياعَه، وأنَّه هو الأمين على هذا الحق، ولا أحد غيره يملك القوة والحكمة في الدفاع عن الحق وصيانته.

٢. **التصور غير الصحيح عن إمكانات الآخرين** وقدرتهم على حمل الرسالة والمضيِّ بها: وذلك بسبب الكبر الذي يورث في نفس صاحبه تقزيمَ إنجازات الآخرين، فهو يعرفها لكنه لا يستطيع تقديرها وبيان مدى أهميَّتها، أو بسبب الجهل بقدرات الآخرين وإمكانياتهم، وهذا ما يجعله يُسارع إلى المشاركة في تبنِّي القضية والمساهمة فيها.

٣. **عدم فهم سنن الله في هذه الأمور**: فيتسلل إلى تفكير صاحب القضية أنه مؤيد بالله - وإن كان ضعيفاً - وأن الله سينصره ويظهره على من خالفه، ثم ينتقل بعدها تدريجياً إلى الاعتماد كلياً على الأسباب الكونية المادية، محاولاً الوصول إليها وحيازتها، وينسى أنها ليست إلا أسباباً، وأنَّ الله هو مُسبِّبُ الأسباب، قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]. وهذا يحدث في مسائل النضال والجهاد، فإنَّ البعض يبدأ جهاده في سبيل الله بأقلِّ الإمكانيات، حتى إذا طال عليه العهد وتحققت له بعض الانتصارات ركن إلى حنكته وقوته، وصار يبحث عن أسباب أخرى يجعلها محورًا للنصر والثبات، وينسى أنَّ سبب نصره الأول كان إيمانه بحقه قبل أي شيء، وأن دوام النصر مرهون بدوام الإيمان. لكنه مع ذلك يبرِّر هذه الانتكاسة بأنَّه صاحبُ الحق.

المتكبِّر يرى من صفاته ما لا يوجد عند غيره، ويرى أنَّ عدم وصايته على الحقِّ تعني التفريطَ به وضياعَه، وأنَّه هو الأمين على هذا الحق، ولا أحد غيره يملك القوة والحكمة في الدفاع عن الحق وصيانته

٤. عدم الإحاطة بالقضية التي يحملها؛ فيشعُرُ بضعفها وهشاشتها، وأنها لو خرجت من بين يديه فستظهر نقاط الضعف التي قد تُسقط القضية بالكلية. لذلك كان النبي ﷺ ينتدب من يرى أنَّه محيط بالأمر الذي أرسل فيه.

٥. الخوف من انتقال القضية إلى غيره: فينضجها ويضيف إليها نقاط القوة، ويتلافى الخطأ والضعف الذي طرأ عليها، أو أن يجددها بعد أن طال عليها العهد، فيظنُّ صاحب الوصاية أنها خرجت من يده، فيمارس سُلُوكه في الوصاية عليها.

(١) ينظر: مقالة إنهم يحتكرون الحق، عبد الحميد الكبتي - موقع المسلم.
(٢) أخرجه مسلم (٩١).

> تنشأ الجماعات والأحزاب لجمع الجهود الفردية لخدمة الأمة والعمل في الصالح العام. ومع مرور الزمن، وما يجتمع لهذه الجماعة من تاريخ وجهود وتضحيات في نصرة قضايا الأمة، نجد أنها تبدأ في إظهار نوع من الاحتكار، إما رغبة في الحفاظ على مكتسبات الأمة، أو ظنًا منها أنه لا أحد يستطيع حمل هذه الأمانة

صور الوصاية على الحق:

للوصاية على الحق صور عديدة تتجلى في الأفراد والجماعات، ومن أهمها:

١. وصاية الفرد على الجماعة: ويكون ذلك بأن يُجعل فردٌ من الأفراد محورَ الحق في جماعةٍ ما، يدور الحقُّ حيث دار هذا الشخص، مع أنَّ الأصل أنَّ مكانة هذا الفرد تُحفظ ما حفظَ الحق في نفسه وفي جماعته، ويُعدُّ الغلوُّ والتزلُّف والغشُّ في النصيحة من أهم أسباب بروز هذا السلوك عند بعض الأفراد؛ فيرتبط وجود الجماعة وحفظها بوجوده، حتى يصل به الحال إلى تسفيه وعزل من يعارضه؛ لأن معارضته تعني معارضة الحق الذي يمثله.

٢. وصاية الجماعة على الأمة والمجتمع: تنشأ الجماعات والأحزاب لجمع الجهود الفردية بغية تنظيمها وزيادة الفاعلية فيها؛ بهدف خدمة الأمة والعمل في الصالح العام. ومع مرور الزمن، وما يجتمع لهذه الجماعة من تاريخ طويل وجهود كبيرة، وخبرات كثيرة، وتضحيات عظيمة في نصرة قضايا الأمة، نجد أنها تبدأ في إظهار نوع من الاحتكار لهذا الحق، إما رغبة في الحفاظ على مكتسبات الأمة، أو ظنًا منها أنه لا أحد يستطيع حمل هذه الأمانة والقيام بها غيرهم، وبالتالي قد تصل إلى نتيجة: أن كل من يحاول حملَ هذا الحق دونها سيكون مفرقًا للأمة، وأن على باقي فئات المجتمع أن لا تعمل إلا من خلالها.

٣. الوصاية على إمام من الأئمة أو مذهبه: ويكثر هذا في الأوساط ذات الاهتمام العلمي الذي يكون محوره خدمة تراث إمام من الأئمة أو مذهبه، ونتيجة لطول الخبرة والملاصقة لعلمه وميراثه يميل البعض إلى احتكار تفسير كلامه وفهمه والعلم بمذهبه، وتدريس علمه، وربما طباعة كتبه والقيام بخدمتها.

٤. الوصاية في شعيرة من شعائر الدين أو قيمة من القيم: وذلك كالجهاد في سبيل الله أو العمل الخيري أو الدعوي أو حتى العمل السياسي، فلطول الممارسة أو السبق في العمل بها يتحول بعض الأفراد أو الجماعات من خدمة هذه الشعيرة والقيام بها إلى احتكار العمل بها والدعوة إليها، ورمي الآخرين بالمخالفة أو عدم الفهم.

> الحماسة غير المنضبطة الناتجة عن احتكار الحق تُزهِّد الناس في الرسالة، أو تجعلهم يحمِّلون الأخطاء والتصرفات السيئة عليها؛ مما يؤدي لنفورهم منها وإعراضهم عنها، وقد تجعلهم ينفرون من أي مشروع مشابه أو مقارب، وبالتالي الإعراض عن الحق والبعد عن الدين.

الآثار السلبية لهذه الظاهرة

ينتج عن هذه الظاهرة آثار سيئة على مستوى الأفراد والمجتمعات:

فمن الآثار على مدعي الوصاية:

١. انسحاب الادِّعاء على كلِّ مناحي الحياة: حيث إنَّه يتحوَّل إلى الشعور أنه على الحق في كلِّ شيء، بما فيه جوانب الحياة التقنية والأساليب العملية، فلا يقبلُ الانتقاد في سياسات مالية أو إدارية أو معالجة المشاكل الإعلامية والتنظيمية.

٢. عدم قَبول النصيحة: فشعوره بالحقِّ الدائم يجعله يظن أنه لا يحتاج نصيحةَ غيره؛ بسبب قصور فهمه أو عدم هدايته، وأنه هو من يحق له أن ينصح غيره دون العكس وهذا هو بطر الحق.

٣. بطر الحق: بحيث ينظر إلى إنجاز غيره بعين الاستصغار والتسفيه، وأنه لا يستحق حتى النظر أو المناقشة.

٤. تقزيم أخطائه وتصغيرها: بحيثُ يراها لا تستحق المراجعة ولا الاعتذار؛ نظرًا لحجم الحق الكبير الذي يحمله، وبدلًا من أن يُصلح هذه الأخطاء يشغلُ نفسه بتبريرها؛ لأنَّه لا يريد

الآثار السلبية للوصاية على الحق

على مدعي الوصاية

١ انسحاب الوصاية على كلِّ مناحي الحياة

٢ عدم قَبول النصيحة

٣ بطر الحق

٤ تقزيم أخطاء الوصي وتصغيرها

على المجتمعات

١ توليد الغلو والتطرف

٢ تحميل أخطاء الوصي على الرسالة ذاتها

٣ التقاعس عن نصرة الحق، ومعاداة حامله

الاعتراف بها، بل قد يؤدِّي الأمر إلى أن يدعي العصمة بلسان حاله، وإن لم يصرِّح بذلك، وهو بهذا يشابه اليهود وأهل الضلال القائلين: نحن أبناء الله وأحباؤه، الرافضين لدعوات الأنبياء ونصائح المصلحين.

ومن آثارها على المجتمعات:

١. **توليد الغلو والتطرف:**

فاحتكار الحق في فهم الدين وتفسيره والعمل به يضيف نوعًا من القداسة على الشخصية أو الجماعة المحتكرة، مما يؤدي إلى نوع غلو عند بعض أتباعهم؛ إذ ينظرون إليهم بعين القداسة والتقديس.

٢. **تحميل أخطاء الوصي على الرسالة ذاتها:**

الحماسة غير المنضبطة لخدمة الرسالة أو القيمة التي يحملها الشخص أو الجماعة والتصرفات الناتجة عن احتكار الحق وادعائه تُزهِّد الناس في هذه الرسالة، أو تجعلهم يحمِّلون أخطاءه وتصرفاته السيئة عل رسالته التي يحملها؛ مما يؤدي إلى نفورهم منها وإعراضهم عنها، وقد يجعلهم ينفرون من أي مشروع مشابه أو مقارب، وصولًا إلى الإعراض عن الحق والبعد عن الدين.

٣. **التقاعس عن نصرة الحق، ومحاكمة حامله:**

عندما يحتكر بعض الأشخاص أو التنظيمات مشروعًا أو فكرة دون بقية الناس -وصايةً على الحق- فإنَّ ذلك يؤدِّي إلى شعور عامة الناس أنَّهم خارج إطارها، وأنَّه لا قيمة لهم بحملها والعمل لأجلها، مما يدفعهم إلى لإعراض عنها وعدم المشاركة والإسهام في خدمتها ونشرها، ويجعلهم ينظرون إليها بعين الناقد والمراقب بدلاً من عين النصير والمعين؛ فينتج بسبب ذلك خسارة جهود وقدرات كبيرة، بل ربما تحولت هذه الجهود إلى صف الخصوم المتربصين بها والناقدين لها، فتكون معولاً من معاول هدم هذه المشروعات أو فشلها.

وأخيرًا:

فإنَّ نقدَ فكرة (الوصاية على الحق) والسلوكيات الناتجة عنها لا يعني أن يتخلَّى الشخص عن اعتقاد الحقِّ في إيمانه وسلوكياته، ولا يُنافي التمسُّك به والتضحية لأجله، ولا أن يميع الحق بين كثرة مدَّعيه والمشكِّكين فيه، ولا التراخي في الدفاع عن الحق، بل هو دعوة للتنبه إلى هذه السلوكية وآثارها ومعالجتها بصورة صحيحة، وحتى لا تكون (الوصاية على الحق) تهمة أو سيفًا مسلطًا على رقاب الخلق، والطعن في أهل الخير العاملين لخير دين الناس ودنياهم.



تزكية

مسؤولية الأب في رعاية إيمان الأبناء

د. وائل الشيخ أمين(*)

على الوالدين مسؤولية كبيرة في رعاية الأبناء وتعليمهم وتربيتهم، ولكل منهما مهمة لا تكتمل التربية إلا بها، فكما تختصّ الأم بالحضانة والرضاعة والتنشئة المبكرة مع الرعاية المستمرة، يقع على عاتق الأب مسؤولية كبرى في التعليم والتربية وصقل الشخصية بطريق القدوة بالأبوة السليمة السوية، التي ثبت وجود علاقة بينها وبين سلامة شخصية الأبناء، وصحتهم النفسية والعقلية.. ومن ثم الإيمان، وفي هذا المقال تسليط للضوء على مسؤولية الأب في حماية إيمان الأبناء، ووقايتهم من الوقوع في براثن الإلحاد.

من الأمور المسلّم بصحتها، مدى تأثير الوالدين في تكوين شخصية أبنائهما، وأن الوالدين يقومان بنقل معتقداتهما وأفكارهما إلى الأبناء، لكنّنا لن نناقش هذه الفكرة المعروفة بل سيكون الحديث عن طبيعة علاقة الأب خصوصًا مع أبنائه، هل تؤثر هذه العلاقة على إيمان الأبناء؟[1]

بتعبير أكثر وضوحًا:

هل العلاقة القوية السليمة بين الابن وأبيه، تساعد في بقاء أو جعل الابن مؤمنًا؟

وهل العلاقة السيئة بينهما قد تؤثر على إيمانه وتدفعه إلى انحرافات قد تصل إلى الإلحاد؟ وماذا نقصد بالعلاقة السيئة بين الابن وأبيه؟

لنصل بعد هذا التطواف إلى معرفة حجم مسؤولية الأب تجاه أبنائه، وكيف يحميهم من الانحرافات العقدية.

سبب الإلحاد: قناعة أم علاقة؟

يقصد بالإلحاد اليوم: إنكار وجود خالق لهذا الوجود.

فهو ضرب من ضروب الكفر والعياذ بالله، يتعدى فكرة إنكار الدين أو النبوة بل يزعم أن هذا الكون ليس له خالق موجد، وهو قناعة مقابل القناعات الدينية التي يؤمن بها المؤمنون.

(*) باحث وكاتب في قضايا الشباب والتغيير، المدير التنفيذي لأكاديمية نهر لبناء الشباب.

(١) لا شك أن للأم أثرًا كبيرًا في حياة أبنائها، لكن المقال يركز على دور الأب لأنه فيما يتعلق بالأثر النفسي على الإيمان والإلحاد فإن طبيعة العلاقة مع الأب هي الأهم.

فما السبب الرئيس في هذه القناعة؟

معظم قناعاتنا لها بعدان: بعد عقلي منطقي، وبعد نفسي. أي إننا نتبنى قناعةً جديدةً، إما لأننا اقتنعنا بها فعلًا، أو لأننا نحب أن نقتنع بها.

وفي غالب أمورنا نجد أن البُعدين حاضران معًا، فعندما نحب أن نقتنع بأمرٍ ما، فلا نحتاج حينها إلى منطق قوي بل يمكن أنّ نقتنع بأقل وأضعف البراهين، فهل الإلحاد كذلك؟

هل يتحول المؤمن – بوجود إله – إلى قناعة الإلحاد، بسبب أدلةٍ تثبت ذلك، أم لأنه يريد ذلك؟

يبدو للباحث في قضايا الإلحاد أن للبعد النفسي طغيانًا كبيرًا في المسألة، بل نستطيع أن نقول إنها إرادة الإلحاد وليست عقيدة الإلحاد.

ومن الأدلة على ذلك: أن عبارات كره الإله تطل برأسها مرارًا من الملاحدة البارزين، وهذه مفارقة عجيبة! فإن من ينكر وجود شيء لا يمكن أن يكرهه! أما عندما نكره شيئًا فإننا نشعر بوجوده عميقًا فينا ولذلك نتخذ هذا الموقف النفسي تجاهه.

والأمثلة على عبارات كره الإله في كلام الملاحدة أكثر من أن تحصى، ربما من أشهرها ما ورد في كتاب «وهم الإله» للملحد الشهير ريتشارد دوكنز، والذي يحاول أن يثبت فيه أن فكرة الإله إنما هي وهمٌ فقط لشيءٍ لا وجود له في الحقيقة، لكن الكتاب مليءٌ بالسباب والشتائم للإله! فلماذا يشتم الكاتب شيئًا يراه غير موجود، ولماذا تراه متوترًا وحانقًا لهذا الحد!؟

لقد كان الأمر غريبًا حتى إن فيلسوفًا ملحدًا شهيرًا يدعى مايكل روس علق على هذا الكتاب قائلًا: «لقد جعلني كتاب (وهم الإله) أشعر بتوتر وارتباك لكوني ملحدًا!»، ثم يتساءل: «إذا كان الإله غير موجود فلم هذا التطرف الشديد ضد الدين؟».

أما المفكر الأمريكي سكوت هان فيعلق على الكتاب قائلًا: «إنك تشعر وأنت تقرؤه أنك أمام محاولةٍ يائسة من شخصٍ يعصف به الضيق، لأنه لم يستطع التخلص من معارضيه الذين لا يزالون يملؤون الساحة».

إن من أهم أسباب الإلحاد الرئيسة:

العلاقة السيئة بين العبد وربه تعالى بسبب بعد العبد عن ربه، مما يولد انعدام العلاقة أو ضعفها، مما يجعل الشخص مستعدًا لقطع تلك العلاقة عند أصغر شبهة تمر به، أما من كانت علاقته بربه قوية فهو غير مستعد للتخلي عنها، حتى لو عصفت به أكبر الشبهات، فهو وإن لم يجد لها جوابًا سيقول: لا شك أن لهذه الشبهات ردًا ولو لم أعرفه.

> **من مخاطر انعدام العلاقة أو ضعفها مع الله عدم فهم أقدار الله تعالى وأقواله وأفعاله، وبالتالي إلقاء اللوم عليه فيما يُشاهد المرء من شرّ، وما يظنّه من طريقة في تحقيق العدل بين البشر، مما يؤدّي لكُرهه، وصولًا إلى إنكاره للتخلص من هذه الأفكار والمشاعر**

وبسبب انعدام العلاقة أو ضعفها فإنَّ ذلك يؤثِّر على عدم فهمه لأقدار الله تعالى وأقواله وأفعاله، وبالتالي إلقاء اللوم عليه فيما يُشاهده من شر، وما يظنُّه من طريقة في التعامل مع المظلومين ونصرتهم، وتحقيق العدل بين البشر، مما يؤدي لكرهه، وصولًا إلى إنكاره للتخلص من هذه الأفكار والمشاعر.

وجميع ذلك يؤدي إلى الجهل بالله تعالى وقَدره، سواء كان ذلك بسبب التربية في بيئة لا تعبأ بمفهوم الإله كما هو الحال في العديد من الأسر في البلاد الغربية أو الشرقية، أو أنها تُقدِّمه بطريقة مشوَّهة تتناقض مع العقل والفطرة، ومع ضعف تربية الأبناء على ضبط وتهذيب الدوافع يصبح لديهم إسراف في المعاصي والشهوات وغيرها، مما يؤدي إلى إحداث صراع داخلي لديهم بين القيم والدوافع فيتخذ أحدهم قرار الإلحاد هروبًا من تأنيب الضمير.

ما علاقة كل هذا بعلاقة الابن مع أبيه وما وجه الارتباط بين العلاقة السيئة مع الأب والإلحاد؟

الأب والرب:

العلاقة بين الأب وابنه تؤثِّر على العلاقة بين الابن وربِّه؛ فبقدر ما تكون العلاقة مستقرّة وهادئة وطبيعية بين الأب وابنه تكون كذلك بين الابن وربه في الغالب.

فالأب هو سبب وجود الأبناء، وهو مُربيهم، ومصدر رزقهم وأمنهم وطمأنينتهم، فهو سيِّد في بيته؛ لذا كان تطلُّع الأبناء إليه وتعلُّقهم به لعددٍ من الحاجات النفسية والبدنية، محبّة مع حاجة

الضعيف إلى القوي، حاجة العائل إلى المغني، حاجة الضال إلى الهادي، حاجة الخائف إلى المؤمِّن، حاجة الصغير إلى الكبير، حاجة الجاهل إلى العالم، حاجة التائه إلى من يرشده.

وكذلك الربُّ تعالى شأنه: فهو الخالق وسبب وجود المخلوقات، وهو الرازق والمنعم، والقائم بشؤون عباده، يهديهم إذا ضلوا، وينصرهم إذا ظُلموا، ويشفيهم إذا مرضوا، مما يجعل وجه الشبه بين العلاقتين فوق ما يظهر للوهلة الأولى.

فرضا الابن عن والده والعلاقة معه يعطيه رضا وطمأنينة للعلاقة مع ربه، وكثيرًا ما يقع العكس.

> **العلاقة بين الأب وابنه تؤثِّر على العلاقة بين الابن وربِّه؛ فبقدر ما تكون العلاقة مستقرّة طبيعية بين الأب وابنه تكون كذلك بين الابن وربه في الغالب؛ فرِضا الابن عن والده والعلاقة معه يعطيه رِضا وطمأنينة للعلاقة مع ربه، وقد يقع العكس**

ومن أشهر الكتب التي تناولت أثر علاقة الابن بأبيه على إيمانه، **كتاب: نفسية الإلحاد.. إيمان فاقد الأب،** لعالم النفس الدكتور بول سي فيتز.

وقد قدَّم الكتاب فرضية مختصرها: إن الإلحاد -خاصةً الحادّ منه- له منشأ نفسي هو الأب المعيب، الذي يؤثر نفسيًا على الابن فيجعله أقل قدرةً من غيره على بناء علاقة مع الرب، فيدفعه هذا إلى إنكار وجوده، والحقيقة أنَّه يكرهُ وجودَه فينكره.

ويَقصد به الأبَ الذي يفقد سلطته أو يخيِّب أمل ولده فيه بشكلٍ كبير، فالأب المعيب يجعل ابنه يَشعرُ بأنه فاقد له حتى لو كان حاضرًا، فلا تنمو علاقة الابن بأبيه بشكل جيد مما يجعله بعد ذلك يرفض أي علاقة من هذا النوع، سواءً كانت هذه العلاقة مع سلطة الدولة أو سلطة الإله والدين.

هنالك ثلاثة أنواع من الأب المعيب:

- الأب الغائب: سواءً كان سبب غيابه الهجرة أو الموت؛ فالطفل الصغير يحمل أباه مسؤولية موته.
- الأب الضعيف: الجبان شديد الضعف لا يستحق الاحترام.
- الأب المؤذي: أي لأبنائه، سواء كان الأذى جسديًا أو جنسيًا أو نفسيًا.

يُفرد الكاتب جزءًا كبيرًا من كتابه في استقراءٍ لمجموعة من أشهر الملحدين البارزين من فلاسفة وعلماء، ويرصد شيئًا من سيرتهم الذاتية المتعلق بعلاقتهم في طفولتهم مع آبائهم، فترى عجبًا من هذه القصص، لقد كان آباؤهم نماذج للأب المعيب!

ثم يفرد جزءًا كبيرًا آخر من كتابه في استقراء شخصيات شهيرة من فلاسفة ومفكرين عرفوا بإيمانهم بالله ودفاعهم عنه ليجعل هذه الشريحة بمثابة الشريحة المقارنة، ويرصد أيضًا شيئًا من سيرهم الذاتية المتعلق بعلاقتهم مع آبائهم لترى أن العلاقة هنا كانت قويةً.

فمن أشهر الملاحدة الفاقدين للأب:

- فريدريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠م):

وهو الفيلسوف الألماني الذي يُعدُّ من أشهر وأشرس الملاحدة وأكثرهم تأثيرًا في الفكر الغربي إلى يومنا هذا، وهو صاحب العبارة الشهيرة: لقد مات الإله!

كان أبوه قسًّا وتوفي عندما كان عمر فريدريك أقل من خمس سنوات، لم يحظ نيتشه بأبٍ بديل، بل كان يعيش في بيت تملؤه النساء: والدتهُ وشقيقته وجدته واثنتان من عماته، لذلك كان لدى نيتشه كرهٌ شديد للنساء ظهر جليًا في فلسفته وكتبه، كما يظهر أثر فقده لوالده، وكان يعتبره إنسانًا ضعيفًا واهنًا يفتقر إلى (قوة الحياة).

يصف أحد كتّاب السيرة الذاتية لنيتشه، بأنه يمكن أن ينظر إلى معظم حياته على أنها: السعي الدائم للأب!

- سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩م):

اتفق كتّاب السيرة الذاتية لفرويد بشكل عام على أن يعقوب والد سيجموند شكل خيبة أمل أو أسوأ من ذلك بالنسبة لابنه، إذ كان يعقوب رجلًا ضعيفًا غير قادر على إعالة أسرته، ولا يقف عند هذا الحد، فقد كتب فرويد في اثنتين من رسائله عندما أصبح شخصًا بالغًا أن والده كان منحرفًا جنسيًا، وأن أطفاله قد عانوا من ذلك!

والد فرويد إذًا هو أب معيب لأنه كان ضعيفًا جبانًا، ومؤذيًا جنسيًا لأبنائه.



- ريتشارد دوكنز (١٩٤١- ...):

أشهر الملاحدة المعاصرين على الإطلاق، حتى أن البعض يسميه بنبي الإلحاد! وقد أمضى طفولته في مدرسة داخلية أي إنَّ أباه كان غائبًا جزئيًا عنه، وقد كانت هذه المدرسة مسيحية متشدِّدة، ويذكر ريتشارد أنه في عمر تسع سنوات تعرض لحادثة اعتداء جنسي من قبل أحد الأساتذة الشواذ المرتبطين بالكنيسة!

أبٌ غائبٌ، وأستاذٌ كان من المفترض أن يساهم في أن يكون أبًا بديلًا لكنه اعتدى جنسيًا عليه، وهذا الأستاذ ممثل للكنيسة!

- كريستوفر هتشنز (١٩٤٩ - ٢٠١١م):

صحفي إنجليزي من أشهر الملاحدة المعاصرين، ويلقب مع دوكنز -آنف الذكر- وملحدَين آخرَين بارزين بالفرسان الأربعة، أي أنهم الشخصيات الأربعة الأهم في الإلحاد الجديد.

كان والد كريستوفر غائبًا جزئيًا عن حياة ابنه لأنَّ الولد درس في مدرسة داخلية من عمر الثامنة إلى الثامنة عشرة.

كانت أم كريستوفر تخون زوجها مع قسيس! وبينما كانت تخطط لترك بيتها انتشرت الفضيحة، فانتحرت والدته مع عشيقها.

لقد كان والد كريستوفر معيبًا بغيابه، كما كان كريستوفر يرى أنَّ والده سببُ انتحار أمه التي كان متعلقًا جدًا بها، كما كان يرى أباه ضعيفًا لم يستطع أن يحافظ على زوجته التي خانته مع قسيس!

> **مشاهير الملاحدة السياسيين لم يكونوا يتمرَّدون ضد الدولة من أجل إقامة دولة عادلة، بل كانوا شديدي الكراهية لأي سلطة، بسبب كُرههم لسلطة آبائهم، ولذلك كانوا حينما يمتلكون السلطة ينكِّلون بشعوبهم، بل كان هنالك تنكيل خاص منهم تجاه السلطة الدينية في بلادهم، وذلك بسبب إلحادهم وموقفهم الشرس تجاه أي سلطة**

سياسيون ملاحدة:

لا تقتصر القائمة على الفلاسفة والعلماء بل تتضمن السياسيين الملاحدة الأشهر!

فجوزيف ستالين الجزار الروسي الذي قتل عشرات الملايين من شعبه، كان أبوه سكيرًا، شديد القسوة يضربه ويضرب أمه كثيرًا ضربًا مبرحًا وغير مبرر، مما جعله -على حد تعبير أحد

أصدقائه- يظهر لديه شعور بالانتقام ضد جميع أولئك الناس الذين يقفون فوقه.

كما أن والد ستالين لم يكن دائم الإقامة في المنزل بل كان يمضي بعض السنين يعمل في مدن قريبة.

أما هتلر فقد كانت لديه حصة يومية من الضرب المبرح من أبيه.

وماو تسي تونغ الطاغية الصيني الملحد يصف والده بأنه كان مستبدًا أسريًا، وأنه كان يكرهه، ويتضامن مع أمه وباقي أفراد الأسرة في التمرد عليه.

لم يكن هؤلاء الملاحدة السياسيون يتمردون ضد الدولة من أجل إقامة دولة عادلة، بل كانوا شديدي الكراهية لأي سلطة كانت بسبب كرههم لسلطة آبائهم، ولذلك كانوا حينما يمتلكون السلطة ينكِّلون بشعوبهم ولا يُعيدون إليهم حقوقهم، كما كان هنالك تنكيل خاص منهم تجاه السلطة الدينية في بلادهم، وذلك بسبب إلحادهم وموقفهم الشرس تجاه أي سلطة[١].

فهل هي جبرية إذًا؟!

ربَّما يقول البعض بعد هذا الاستعراض: يبدو أنَّ الأمر حتمي، فمن كان لديه أبٌ غائب أو معيب، سيكون ملحدًا، ومن كانت لديه علاقة طيبة مع أبيه فإنه سيبقى على إيمانه.

الأمر ليس كذلك طبعًا، بل تتداخل العديد من العوامل الاجتماعية والنفسية والشخصية في الموضوع.

ففي الغرب: يجتمع ضعف الدين المحرَّف، ومناقضتُه للعقل والمنطق، وسوءُ سلوكِ كثير من رجاله، مع ضعف الحياة الاجتماعية والتفكك الأسري المريع، وسيادة الكثير من الأخلاق السيئة، والمادية، وانتشار المذاهب والأفكار الضالة، وقيام مؤسسات المجتمع عليها، بالإضافة إلى تقبُّل فكرة الإلحاد وانتشارها كما لم يكن في السابق، مما جعله خيارًا ممكنًا أكثر من أي وقتٍ مضى، ثم يأتي ضعف الأب أو غيابه فيكون مكملًا لهذه العوامل مما يؤدي لنتائج مدمرة من أخطرها الإلحاد.

أما في مجتمعاتنا المسلمة:

فالأصل أن الوضع مختلف؛ فالدين حاضر في المجتمع وفي سلوك الناس وتعاملاتهم، وهو موافق للفطرة والعقل، بالإضافة إلى قوة الترابط الاجتماعي؛ لذا فإن غياب الأب عن حياة أبنائه ليس له ذلك الأثر الخطير كما هو الحال في المجتمع الغربي، فالعديد من العائلات فقدت معيلها بسبب الموت، كما شهدت البلاد الإسلامية ابتعاد العديد من الآباء عن أُسَرهم بسبب الرحلة للعلم أو طلب الرزق وغير ذلك، ومع ذلك نشأ الأبناء في كنف أمهاتهم نشأةً سليمة، وحظوا برعاية أسرهم وأقربائهم، فكانوا أعضاء صالحين في مجتمعاتهم، وكان كثير منهم من كبار العلماء والمشاهير.

بل إنَّ العديد من العوائل كان آباؤهم فاسدين ومفسدين، ومع ذلك تخطت العوائل هذه العقبة وربّت أبناءها بطريقة سليمة.

لكن!

ما يشهده العالم الإسلامي في السنوات الأخيرة في المشابهة الكبيرة للحياة الغربية، من التفكُّك الأسريِّ، والابتعادِ عن الدين والأخلاق، وظهور نماذج من الآباء القساة، وانتشار ظواهر الإلحاد، والانفتاح على المجتمعات الغربية وأحوالها وغيرها، كل ذلك يدقُّ ناقوس الخطر بشدّة، ويوجب علينا أن نتنبّه لهذه المسألة وأن نوليها العناية المناسبة؛ فآثار غياب الأب أو الأب المعيب في مجتمعاتنا الحالية قد لا تكون كما كانت في السابق.

ومن أهم المستجدات التي ينبغي التصدي لها اليوم: غياب الآباء الوجودي بسبب الموت أو الإصابات أو الاعتقال في أحداث الربيع العربي؛ فنحن أمام حالة استثنائية من غياب الأب اليوم من جهة كثرتها العددية، وكذلك موجات الهجرة والشتات التي مزقت العائلات وأبعدت الآباء عن الأبناء، وهذا الوضع برمته صعّب كثيرًا إيجاد الأب البديل عند الحاجة إليه.

فينبغي للمهتمين والمختصين العناية بالحالات والمجتمعات التي تكثر فيها هذه الحالات؛ لاحتواء الإشكالات في مهدها وقبل تفاقمها.

(١) في الكتاب المشار له تفاصيل أخرى لم يتطرق لها المقال تستحق النظر والعناية، كأثر العلاقة بين الأب والرب، وهي وإن كانت مختصة بالمجتمعات غير المسلمة، لكون الكاتب نصرانيًا، وجميع أمثلة الكتاب كانت لملحدين كانوا على غير ملة الإسلام. ومع أن هذا الكلام صحيح، إلا أنه يمكننا على ضوئه الاستفادة من دراسته في بعض ما يهمنا، والنظر لحال بقية المجتمعات وبخاصة مجتمعاتنا الإسلامية من خلال المقارنة بين المجتمعات، وهو ما يحاول هذا المقال إلقاء الضوء على بعض جوانبه.



> **من أهم المستجدات التي ينبغي التصدِّي لها اليوم: غياب الآباء الوجودي بسبب الموت أو الإصابات أو الاعتقال في أحداث الربيع العربي؛ فنحن أمام حالة استثنائية من غياب الأب اليوم من جهة كثرتها العددية، وكذلك موجات الهجرة والشتات التي مزقت العائلات وأبعدت الآباء عن الأبناء، وهذا صعّب كثيرًا إيجاد الأب البديل عند الحاجة إليه**

مسؤولية الأب تجاه أبنائه:

ليست الغاية هنا تعداد مسؤوليات الأب تجاه أبنائه التي نعلمها بالعموم، لكن المقصود التشديد على مسؤولية الأب في بناء علاقة صحيةٍ مع أبنائه.

على الأب أن يعلم أن حضوره القوي وتواصله الجيد مع أبنائه يسهم في سلامة تنشئتهم الفكرية واستقرارهم النفسي، مما يسهم في بناء إيمان ابنه بالله تعالى وقوته.

وعلى الأب أن يعلم أنَّ من أولوياته ألا يغيب عن أبنائه قدر المستطاع، فالغياب الجزئيُّ مؤثر، بل إنَّ الكثير من الآباء -للأسف- حاضرون بأجسادهم لكنهم غائبون بأرواحهم، فلا يقيمون علاقات جيدة مع أبنائهم.

وعلى الأب أن يعلم أنَّ ضعفه وجُبنه لن يتوقَّف أثره السيء عليه بل سيمتد عميقًا جدًا في نفوس أبنائه فوق ما يتصور.

على الأب أن يعلم أن اعتداءاته على أبنائه وقسوته عليهم لن تكون مجرد لحظات عابرة بل إن هذا الأذى سيشوه نفوس أبنائه من الداخل، وسيعوق هؤلاء الأبناء عن بناء علاقات مع خالقهم سبحانه وتعالى.

أما في حال غياب الأب أو كونه (معيبًا) فعلى المجتمع أن يسدد ويقارب في سد هذه الثغرة، سواء من الأقارب أو المربين، أفرادًا ومؤسسات.

اليتم الحقيقي:

قد يصل الحنق الشديد من الابن الذي يعاني من الأب المعيب لدرجة أنه يكره كل سلطة، ويتمرد عليها بأشكال متعددة، المصيبة أنه حين يفعل ذلك فإنما ينتقم من نفسه!

يستطيع هذا الابن أن يأوي إلى ربه تعالى، أن يضع همَّه بين يديه، أن يشكو إليه حاله بصدق، وسيرى حينَها كيف يتحول يتمه إلى قوة، وكيف تتحول حاجته إلى غنى، وكيف يتحول تيهه وضياعه إلى هدى وبصيرة، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨]، وتستطيع الأم أو من يقوم على تربية هذا الابن أن يأخذ بيده إلى هذا الطريق.

أما إن اتَّخذ الابن خيار الانتقام من أبيه، ليقع أثرُ الانتقام في نفسه وذلك بأن يَكفر بربه، فحينها فقط سيعيش اليتم الحقيقي، والمعاناة الحقيقية، هنا فقط سيصل إلى العطش الذي لا يروى، وإلى التيه الذي ليس له نهاية، وإلى البحث بلا جدوى.

إنَّ القرار النهائي في اختيارات الإنسان يبقى دائمًا ملكًا حصريًا لإرادته الحرة، وكل ما سوى ذلك إنما هي ضغوطات تجاه خيارٍ معين.

سيبقى الإنسان حرًا في قراره، وسيُسأل!



حدود الطاعة الشرعية لولاة الأمر

د.عمار بن إبراهيم العيسى(*)

مفهوم طاعة ولاة الأمر مِن القضايا الجدلية في هذا الزمان مِن حيث تحديد ما يَدخُلُ في الواجب الشرعي مِن طاعتهم وما لا يدخُل، ويأتي هذا المقال في رسم حدود الطاعة الشرعية مِن حيث الوجوب وعدمه؛ إبرازًا للنصوص الواردة في ذلك، وانسجامًا مع مقاصد الشرع في الإمامة، بغض النظر عن أحوال الأفراد، وعوارض الاستطاعة والإكراه.

تمهيد في المقصود مِن نصب الإمام:

وجودُ الإمام ليس مطلوبًا لنفسه، وعقدُ الإمامة ليس مقصودًا لذاته، وإنما شُرع لما يترتب عليه.

قال الطِّيبي في «شرح المشكاة»: «الراعي ليس بمطلوب لذاته، وإنما أقيم لحفظ ما استرعاه المالك، فعلى السلطان حفظ الرعية فيما يتعين عليه مِن حفظ شرائعهم... فينبغي أن لا يتصرف في الرعية إلا بإذن الله ورسوله»[1].

وأحكامُ الإمامة ليست مِن الأحكام التعبُّدية المحضة التي لا يُعقل معناها، بل هي مِن الأحكام التي شُرعت لتحقيق مقاصد شرعية عظيمة تتمثل في حراسة الدين، وسياسة الدنيا به بما يُحقِّق مصالح الناس، ويحفظ ضرورياتهم، ويدفع عنهم المفاسد، فالإمامة: «موضوعةٌ لخلافة النبوّة في حراسة الدين، وسياسة الدنيا»[2].

ولا يتمكّن الحاكم مِن القيام بهذه المهامّ إلا بتجاوُب الرعية مع قراراته وتوجيهاته، ومِن هنا جاءت النصوص الشرعية مُلزمةً للرعية طاعة مَن ولّاه اللهُ أمرهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

(*) أكاديمي، ومتخصص في البحث والتعليم الشرعي.

(١) الكاشف عن حقائق السنن (شرح مشكاة المصابيح)، للطيبي (٨/ ٢٥٦٩).

(٢) الأحكام السلطانية، للماوردي ص (٧)، وفي معناه ما ذكره ابن خلدون في تاريخه (٢٣٩/١).

قال الطبري: «وأولى الأقوالِ في ذلك بالصواب قولُ مَن قال: هم الأمراء والولاة؛ لصحّة الأخبار عن رسول الله ﷺ بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان طاعةً وللمسلمين مصلحة»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (عليك السمعَ والطاعة في عُسرِك ويُسرِك، ومَنشطِك ومَكرهِك، وأَثَرةٍ عليك)[2].

وقال الإمام الطحاوي في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة: «ولا ننزعُ يدًا مِن طاعتِهم، ونرى طاعتَهم مِن طاعةِ الله عز وجل فريضةً ما لم يأمروا بمعصية»[3].

> **ليس في شيء مِن أدلة الشريعة ما يدلّ على وجوب طاعة مَن يقود الأمةَ بغير شريعة الله مِن الأهواء أو القوانين الوضعية، بل إنّ الداعي لنصبه، والمعنى الذي أمر بطاعته لتحقيقه قد فات كليًا باتخاذه كتاب الله وراءه ظهريًا، وإعراضه عن شريعة الإسلام**

الشريعة قيدت طاعة الحكّام:

طاعة الحكام ليست مطلقةً بلا قيود، فقد جاءت الشريعة بضبط هذه الطاعة ليتحقَّق المقصد مِن مشروعيتها، فمَن يتأمَّل هذه الضوابط تتبيّن له عظمة التشريع الإسلامي في تحقيق المصالح ودرء المفاسد من جميع الجوانب. فمِن أجل انتظام أمور الجماعة، وتحقيق الدولة لواجباتها ومسؤولياتها ألزمت الرعيةَ بالسمع والطاعة، وجعلت ذلك فرضًا دينيًا يُثاب فاعلُه ويعاقَب تاركُه. ومِن أجل ضبط هذه الطاعة لئلا تخرج عن مقصودها، ولئلّا تتحوّل إلى أداةٍ للاستبداد وتحقيق الأهواء فقد وضعت لها قيودًا وضوابط تحافظ عليها في سياقها الصحيح. وهذا المقال يُعنى ببيان هذه الضوابط، وذكر أدلتها، وإبراز حدودها ومعالمها، وإذا كان الأصل هو وجوب طاعة الحاكم المسلم، فالسؤال الذي يجيب عنه المقال:

ما هي الضوابط الشرعية في طاعة ولي الأمر المسلم؟

ويمكن إجمال هذه الضوابط في خمسة:

١. أن يقود الأمةَ بكتاب الله.

٢. ألّا يأمر بمعصية.

٣. أن يأمر بما يقتضيه العلم.

٤. أن يأمر بما يتعلق بالمصالح العامة.

٥. أن يأمر بما يُستطاع.

وقبل الشروع في تناول هذه الضوابط يحسُن التأكيد هنا على عدم التلازم بين عدم وجوب طاعة ولي الأمر في بعض الصور وبين مشروعية الخروج عليه، فقد لا تجب الطاعة ومع ذلك لا يشرع الخروج؛ لعدم تحقق شروطه.

كما أنّ الأمر بلزوم الجماعة والمنع مِن الخروج على ولاة الأمر لا يستلزم الطاعة المطلقة لهم، ومتابعتهم على الحق والباطل.

وفيما يلي توضيح هذه الضوابط:

الضابط الأول: أن يقود الأمةَ بكتاب الله:

إنما نُصب الإمام (السلطان) لحراسة الدّين، وسياسة الدّنيا به، وهذا يوجب أنْ يقود الأمةَ بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فإذا لم يفعل فات المقصود الأساس مِن نصبه، وزال أهم الأسباب التي مِن أجلها أوجبت الشريعةُ على الرعية طاعتَه.

فعن أمِّ الحصين رضي الله عنها: أنَّها سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: (إنْ أُمِّر عليكم عبدٌ مُجدَّعٌ يقودكم بكتاب الله تعالى، فاسمعوا له وأطيعوا)[4].

وبيّن هذا بجلاء ووضوح أميرُ المؤمنين علي رضي الله عنه حيث قال: «حقٌّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله عز وجل، وأنْ يؤدِّي الأمانة، فإذا فعل ذلك فحقٌّ على الناس أن يسمعوا له وأن يطيعوا، وأن يجيبوا إذا دُعوا»[5].

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري (١٨٢/٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٣٦). الأَثَرَة: الاسم مِن آثَرَ يُؤثِرُ، والمراد أنه يستأثر عليكم، فيفضّل غيركم، ويختص بالدنيا دونكم، والاستئثارُ: الانفراد بالشيء. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٢/١).

(٣) متن الطحاوية، لابن أبي العز، ص (٦٨).

(٤) أخرجه مسلم (١٢٩٨). مُجَدَّع: أي مُقطَّع الأعضاء. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير الجزري (١/ ٢٤٧).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٢٥٣٢)، وسعيد بن منصور في التفسير (٦٥١)، والطبري في تفسيره (١٦٩/٧)، والخلال في السنة (٥١) بسند صحيح لا مطعن فيه، وصحح إسناده د.سعد الحميد، ود.بشير حكمت ياسين في الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور (٦٨/٢).

وقال الإمام مالك رحمه الله: «لا يكون أحدٌ إمامًا أبدًا إلا على هذا الشرط»[١].

وفي بيان معنى القيادة بكتاب الله تعالى يقول الطيبي: «(يقودكم) يسوقكم بالأمر والنهي على ما هو مقتضى كتاب الله وحكمه»[٢].

وفي بيان اعتبار هذا القيد في لزوم طاعة الأئمة يقول القاضي عياض: «وفيه ما يلزم مِن طاعة الأئمة إذا كانوا متمسِّكين بالإسلام، والدعوة لكتاب الله كيف ما كانوا هم في أنفسهم وأنسابهم وأخلاقهم»[٣]، وبنحوه قال النووي[٤].

وقال ابن حزم: «الإمام الواجب طاعته ما قادنا بكتاب الله تعالى وبسنة رسول الله ﷺ الذي أمر الكتابُ باتباعها، فإن زاغ عن شيء منهما مُنع مِن ذلك..»[٥].

وقال الأمير الصنعاني: «ولكنْ شرَطَ السمعَ له والطاعةَ بقوله: (ما أقام فيكم كتاب الله) أي: ما عمل فيكم بالقرآن»[٦].

فإن قيل: إنَّ كثيرًا من النصوص تأمر بطاعة ولي الأمر بإطلاقٍ دونَ تقييد بهذا القيد، ولو كان فاسقًا عاصيًا.

فالجواب: أنّه ليس في شيء مِن أدلة الشريعة ما يدلّ على أنّ مَن يقود الأمةَ بغير شريعة الله مِن الأهواء أو القوانين الوضعية أنه يجب أن يُسمَع له ويُطاع له، بل إنّ الداعي لنصبه، والمعنى الذي أمر بطاعته لتحقيقه قد فات كليًا باتخاذه كتاب الله وراءه ظهريًا، وإعراضه عن شريعة الإسلام.

ومما يوضّح هذا أنّ البيعة الواجبةَ على الرعية إنما تكون بمبايعته على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فمَن طلب البيعةَ على غير الكتاب والسنة لم يُجَب إلى ذلك.

قال أبو عبد الله القرطبي: «إذا انعقدت الإمامةُ.. وجب على الناس كافةً مبايعتُه على السمع والطاعة، وإقامةِ كتاب الله وسنّةِ رسوله ﷺ»[٧].

وقال ابن حجر: «والأصلُ في مبايعة الإمام أن يبايعَه على أن يعملَ بالحقّ، ويقيمَ الحدود، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر»[٨].

> **المقصودُ بسقوط طاعة الإمام الذي يحكم بغير ما أنزل الله أنه لا تجب طاعتُه شرعًا بمجرد صفته إمامًا، وكونِه حاكمًا أو وليَّ أمر. أما التقيد بالأنظمة المحقِّقة للمصالح العامة مِن غير مخالفةٍ للشريعة فلا بدّ منه**

وإذا تقرر أنَّه لا تجب طاعةُ الإمام الذي لا يقود الأمةَ بالكتاب والسنة، ولا يحكُمُ بشريعة الله، فلا يعني ذلك خروجَ المسلم عن التقيُّد بالقوانين الأخرى الموافقة للشريعة في ضبط حياة الناس، ودرء المفاسد عنهم، ومنع الجنايات والاعتداء فيما بينهم.

فالمقصودُ بسقوط طاعة الإمام الذي يحكم بغير ما أنزل الله أنه لا تجب طاعتُه شرعًا بمجرد صفته إمامًا، وكونِه حاكمًا أو وليَّ أمر، أما التقيد بالأنظمة المحقِّقة للمصالح العامة مِن غير مخالفةٍ للشريعة فلا بدّ منه، ومثلُ ذلك فيما لو دخل المسلم بلادًا لا تُحكَم بالشريعة للعمل أو للزيارة، فدخوله يكون مِن خلال عقد مع تلك الحكومة فيَلزمُه الوفاءُ بهذا العقد وعدم مخالفة الأنظمة العامة التي بها تتحقق المصالح في غير المعاصي.

ويمكن بيان وجه ذلك مِن خلال الربط بالتكييف الشرعي لسلطة الإمام؛ فإنّ سلطة الإمام لها جانبان[٩]:

---

(١) الصواعق المحرقة، لابن حجر الهيتمي (٣٧/١)، وقد أورده بعد ذكر شرط أبي بكر رضي الله عنه في خطبته بعد تولي الخلافة: «أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم»، «إنما أنا متبع، ولست بمبتدع، فإذا أحسنتُ فأعينوني، وإذا أنا زغت فقوّموني».

(٢) الكاشف عن حقائق السنن (شرح مشكاة المصابيح)، للطيبي (٢٥٥٨/٨).

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٣٧٥/٤).

(٤) شرح النووي على مسلم (٤٦/٩).

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم (٤/ ٨٤).

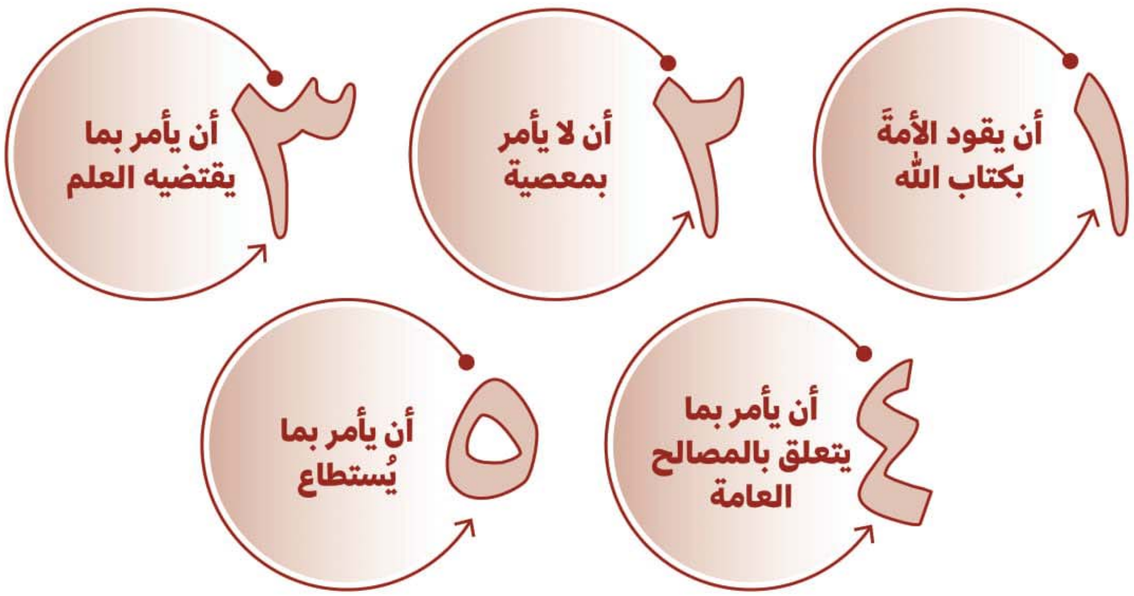
(٦) التحبير لإيضاح معاني التيسير، للصنعاني (٧٣١/٣).

(٧) الجامع لأحكام القرآن (٢٧٢/١).

(٨) فتح الباري، لابن حجر (٢٠٣/١٣).

(٩) ذكر المرداوي في الإنصاف (٣١٠/١٠) الخلافَ في تكييف تصرفات الإمام، وهل هي بطريق الوكالة أو الولاية.

الضوابط الشرعية لطاعة ولي الأمر المسلم



أحدهما: شرعي يتمثّل في كونه نائبًا عن صاحب الشرع في تطبيق أحكامه، ومِن هنا تثبت له الولاية الشرعية.

قال ابن خلدون في مقدمته: «قد بيّنّا حقيقة هذا المنصب، وأنّه نيابةٌ عن صاحب الشّريعة في حفظ الدّين، وسياسة الدّنيا به»[(١)].

والثاني: دنيوي يتمثّل في كون الإمام وكيلًا ونائبًا عن الناس في إدارة شؤونهم العامة.

قال الحجاوي: « وتصرفه -أي الإمام- على الناس بطريق الوكالة لهم، فهو وكيل المسلمين»[(٢)]. فسلطةُ الإمام مركبةٌ مِن الولاية الشرعية والوكالة مِن الرعية عبر ممثليهم مِن أهل الحلِّ والعقد.

قال ابن تيمية في بيان تعلّق سلطة الإمام بالجانبين: «إنّ الخلقَ عبادُ الله، والولاة نوابُ الله[(٣)] على عباده، وهم وكلاءُ العباد على نفوسهم؛ بمنزلة أحد الشريكين مع الآخر؛ ففيهم معنى الولاية والوكالة»[(٤)].

فولايةُ الإمام مُستفادة مِن الشريعة، فإذا لم يَحكُم بها سقط ما ثبت له مِن الولاية، ولم يثبت كونُه وليًا للأمر شرعًا تجب طاعتُه، ولكن يبقى الجانب الآخر المتمثل في التعاقد والاتفاق بين الطرفين، وينبني عليه التقيد بحسب ما وقع عليه الاتفاق.

الضابط الثاني: أن لا يأمر بمعصية:

الذي أوجب طاعةَ ولاة الأمر هو الله عز وجل، فإذا أمر الحاكمُ أو الوالي بمعصية الله في أمر من الأمور لم يُمكن أن يمتثل أمره بمعصية اللهَ سبحانه الذي ما شرعتْ طاعةُ الولاة إلا بأمره، وقد جاءت السنة النبويةُ صريحةً في أنَّه لا طاعة في المعاصي، وأنَّ طاعتهم تسقط إذا أمروا بمعصية.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: (السمعُ والطاعةُ على المرء المسلم فيما أحبّ وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)[(٥)].

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٢٣٩/١).
(٢) كشاف القناع، للبهوتي (١٦٠/٦).
(٣) المراد أنّ الله عهد إليهم أن ينفذوا في العباد حكمه، وجعل لهم ولاية في ذلك.
(٤) مجموع الفتاوى (٢٥١/٢٨).
(٥) أخرجه البخاري (٦٣/٩ برقم: ٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا طاعةَ في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف)[١].

وقال الشوكاني: «وهذا تقييدٌ لما أُطلق في الأحاديث المطلقة القاضية بطاعة أولي الأمر على العموم، والقاضية بالصبر على ما يقع مِن الأمير مما يكره»[٢].

إذا أمر الحاكم المسلم بمعصيةٍ فإنّ الطاعةَ تسقط في خصوص ما أمر به مِن المعصية، لا في عُموم ما يأمر به؛ لأنّ الأصل وجوبُ السمع والطاعة

ومما ينبغي التنبيهُ عليه أنّ الحاكمَ المسلم إذا أمر بمعصيةٍ فإنّ الطاعةَ تسقط في خصوصِ ما أمر به مِن المعصية، لا في عُموم ما يأمر به؛ لأنّ الأصل وجوبُ السمع والطاعة، ويخرج عن هذا الأصل ما إذا أمر بمعصية فتسقط طاعتُه فيها، ويبقى ما عداه على الأصل.

قال أبو العباس القرطبي: «فإنْ أمر بمعصية فلا تجوز طاعته في تلك المعصية قولًا واحدًا»[٣].

وأما ما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنه سيلي أمرَكم مِن بعدي رجالٌ يُطفئون السنة، ويُحدثون بدعة، ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها، قال ابن مسعود: يا رسول الله، كيف بي إذا أدركتُهم؟ قال: ليس يا ابن أم عبدٍ طاعةٌ لمن عصي الله. قالها ثلاث مرات)[٤]. فهذا الحديث مختلَفٌ في ثبوته، وعلى القول بثبوته فالمرادُ به عدمُ موافقته في المعاصي المذكورة، لا سقوط طاعته بالكلية.

قال أبو الحسن السندي: «قوله: (لمن عصى الله) أي: فيما به يعصيه، لا مطلقًا»[٥].

وقال ابن بطال في شرح صحيح البخاري: «وقال الجمهور مِن الأمة وأهل الحديث: لا يُخلع بهذه الأمور -أي بالجَور والظلم-، ولا يجب الخروج عليه؛ بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته فيما يدعو إليه من معاصي الله»[٦].

ولابن تيمية تفريقٌ في طاعة الإمام بين ما إذا كان عدلًا أو غيرَ عدل، حيث يقول: «والإمامُ العدلُ تجب طاعتُه فيما لم يُعلم أنه معصية، وغيرُ العدل تجب طاعتُه فيما عُلم أنه طاعةٌ كالجهاد»[٧].

ولعلّ وجه ذلك أنّ الأصلَ في العدل أن يتحرَّى مرضاة الله، ويتجنَّب معاصيَه، ويجتهد في تحقيق مصالح المسلمين بخلاف غير العدل الذي عُرف باتباع هواه، وعدم تحرِّي مرضاة الله وتحقيق مصالح الناس التي إنما نُصب لتحقيقها، وما أُمر بطاعته إلا لإعانته عليها، فقد يكون في طاعته إعانةٌ له على هواه مما يخرج عن مقصود نصبه.

ويدخل في قوله: «فيما عُلم أنه طاعة» كلُّ ما يحقق مصالح العباد، ويدرأ عنهم المفاسد؛ لأنّ الأمرَ به لا شكَّ أنه مِن الطاعة، فلا بدّ مِن إعانته عليه بطاعته والتجاوب معه في تحقيقه.

إذا أمر السلطان مِن غير علم بالشرع ولا الواقع، ولا رجوع إلى أهل العلم فيمَا تتوقَّف معرفةُ حكمِه على ذلك كان عاصيًا بذلك، ويسقطُ وجوبُ طاعته فيما أمر به

وهذا يلتقي مع ما قرَّره العزُّ بن عبد السلام بقوله: «وكذلك لا طاعةَ لجهلة الملوك والأمراء إلا فيما يعلم المأمورُ أنه مأذونٌ في الشرع»[٨]، فكلامُه متوافق مع كلام ابن تيمية في أنّ طاعة الأئمة في الحال التي لا يتحقق فيهم مِن الصفات ما يؤتمنون فيه على مصالح الخلق إنما تكون في المأذون شرعًا الذي عُلم أنه ليس بمعصية بخلاف الأئمة العدول العالمين الذين يُطاعون في كلّ ما يأمرون به إلا إذا علم أنه معصية محقّقة.

(١) أخرجه البخاري (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠).
(٢) نيل الأوطار، للشوكاني (٧/ ٢٧١).
(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٤/ ٣٨).
(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٨٦٥) وصححه جمع من أهل الحديث، وفي سماع عبد الرحمن من أبيه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه اختلاف.
(٥) نقله عنه محققو مسند أحمد، ط الرسالة (٦/ ٣٤٠).
(٦) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/ ٢١٥).
(٧) مجموع الفتاوى (٢٩/ ١٩٦).
(٨) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام (٢/ ١٥٨).

الضابط الثالث: أن يأمر بما يقتضيه العِلم لا بمجرَّد هواه:

تحصيلُ مصالح العباد، ودرءُ المفاسد عنهم، وحفظُ ضرورياتهم لا يتأتّى إلا بالعلم والخبرة التي يحصلها الإمام بنفسه أو بمن يُشاورهم مِن أهل العلم، فإذا أمر مِن غير علم بالشرع ولا الواقع، ولا رجوع إلى أهل العلم فيما تتوقّف معرفةُ حكمِه على ذلك كان عاصيًا بذلك، ويسقطُ وجوبُ طاعته فيما أمر به على خلاف قانون العلم، ويدخل في ذلك ما إذا أمر السلطانُ بقضية اختصاصية سواء كانت شرعيةً أو اقتصاديةً أو غيرها، وكان جاهلًا بذلك الاختصاص، ولم يرجع إلى أهل المعرفة بذلك، ويحكم أهلُ الخبرة بخطأ قراره، وأنه يفضي إلى وقوع المفاسد، ولا يحقق المصالح فحينئذ يجب عليه أن يتراجع عن قراره، ولا تجب طاعتُه فيه إلا إذا أجبر الرعيةَ عليه، فيُطاع لمحلّ الاضطرار.

قال أبو العباس القرطبي: «الأمراء شرطهم أن يكونوا آمرين بما يقتضيه العلم، وكذلك كان أمراءُ رسول الله ﷺ، وحينئذ تجب طاعتهم، فلو أمروا بما لا يقتضيه العلم حَرُمَت طاعتهم»(١).

وقال ابن القيم: «والتحقيقُ أنّ الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم؛ فطاعتُهم تبع لطاعة العلماء؛ فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أنّ طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء»(٢). وقرر ذلك أيضًا الحافظ العراقي(٣).

وسبق قول العز بن عبد السلام: «لا طاعةَ لجَهَلة الملوك والأمراء إلا فيما يعلمُ المأمورُ أنَّه مأذونٌ في الشرع»(٤).

وما يؤكد هذا الضابط القاعدةُ التي قرّرها العلماء، وهي أنّ (تصرف الإمام على الرعية مَنوطٌ بالمصلحة)، بمعنى أنه ليس له أن يتصرف بمجرد هواه ورغبته، بل يجب عليه أن يراعي في قراراته وتصرفاته مصلحة مَن وُلّي عليه مِن الرّعية، فإذا تصرَّف بغير ما تقتضيه المصلحة كان تصرفُه مخالفًا للشريعة، وكان عاصيًا بذلك مما يستدعي نصيحتَه والإنكار عليه، لا إعانته على المعصية بطاعته، وقد أورد الفقهاء تحت هذه القاعدة أمثلةً كثيرةً لتصرُّفاتٍ واقعةٍ مِن الإمام على غير المصلحة، وحكموا بعدم صحَّتها(٥).

وقال ابن نجيم الحنفي: «تنبيهٌ: إذا كان فعلُ الإمام مبنيًا على المصلحة فيما يتعلق بالأمور العامة لم ينفُذ أمره شرعًا إلا إذا وافقه(٦)، فإن خالفه لم ينفُذ»(٧).

> **إلزام السلطان في مسائل النزاع بالتزام قولٍ بلا حجَّةٍ مِن الكتاب والسنة لا يجوز باتِّفاق المسلمين، ولا يفيد حكمُ حاكم بصحّة قولٍ دون قولٍ في مثل ذلك إلا إذا كان معه حجةٌ يجبُ الرجوع إليها**
>
> **ابن تيمية رحمه الله**

الضابط الرابع: أن يأمر بما يتعلق بالمصالح العامة:

نظرُ الإمام متعلِّقٌ بالشأن العام؛ لأنّ موضوعَ الولاية رعايةُ مصالح الخلق العامة في العاجل والآجل، فليس له أن يتدخّل فيما لا تعلُّق له بالشأن العام مما يسوغ للعباد أن يعملوه في خاصة أنفسهم، فليس مِن صلاحيات الإمام إلزام الناس بقولٍ معين في المسائل الاجتهادية المتعلقة بالعبادات والشؤون الخاصة، فإذا أمر بشيء مِن ذلك كان أمره كأمر غيره؛ لأنه خارج عن موضوع ولايته، كما لو أمر شخصًا أن يزوّج ابنتَه لفلان، أو أمره أن يتوضأ مِن أكل لحم الإبل، أو يحج متمتعًا.

قال الإمام الطبري: «لا طاعةَ تجب لأحدٍ فيما أمر ونهى فيما لم تقم حجةُ وجوبه إلا للأئمة الذين ألزم الله عباده طاعتَهم فيما أمروا به رعيتَهم مما هو مصلحةٌ لعامة الرعية، فإنّ على مَن أمروه بذلك طاعتَهم»(٨).

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣٥/٤).
(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٨/١).
(٣) طرح التثريب في شرح التقريب، للعراقي (٨٢/٨).
(٤) قواعد الأحكام (١٥٨/٢).
(٥) ينظر: المنثور في القواعد الفقهية، للزركشي (١/ ٣٠٩)، الأشباه والنظائر، للسيوطي، ص (١٢١)، شرح القواعد الفقهية، للزرقا، ص (٣٠٩).
(٦) كذا وقع في المطبوع، ولعله: وافقها، وكذلك قوله بعدها: «فإن خالفه»، لعلّ صوابه: خالفها.
(٧) الأشباه والنظائر، لابن نجيم ص (١٠٦).
(٨) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري (١٨٤/٧).

وقال ابن تيمية: «وأما إلزام السلطان في مسائل النزاع بالتزام قولٍ بلا حجَّةٍ مِن الكتاب والسنة فهذا لا يجوز باتِّفاق المسلمين، ولا يفيد حكمُ حاكمٍ بصحّة قولٍ دون قولٍ في مثل ذلك إلا إذا كان معهُ حجةٌ يجبُ الرجوع إليها؛ فيكون كلامُه قبل الولاية وبعدها سواء، وهذا بمنزلة الكتب التي يصنفها في العلم»(١).

وأما قاعدة (حكم الحاكم يرفع الخلاف) فمحلُّ تطبيقها إنما هو في حكم القاضي في مسائل النزاع بين الخصوم؛ لأنّ القضاء إنما أُقيم لفضِّ النزاع، وقطع الخصومة، ولا يتأتى ذلك إلا بالإلزام بحكم القاضي ونفوذه في المسائل الاتفاقية والخلافية، إلا إذا بنى حكمَه على ما يخالف النص أو الإجماع، أو حَكم بقول شاذ مردود فإن حكمَه حينئذ يُنقض.

الضابط الخامس: أن يأمر بما يُستطاع.

جميع التكاليف الشرعية منوطة بالاستطاعة، فإذا لم تتحقق سقط التكليف، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم)(٢).

وقد جاء النص على اشتراط الاستطاعة في خصوص وجوب طاعة أولي الأمر، كما جاء عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: (كنا إذا بايعنا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة، يقول لنا: فيما استطعتم)(٣).

قال ابن حبان: «(وتطيعوا لمن ولاه الله أمركم) لفظُه عامٌّ له تخصيصان؛ أحدهما: أن يؤمر المرء بما له فيه رضى، والثاني إذا أمر ما استطاع دون ما لا يستطيع»(٤).

ويحسن هنا التنبيه أنّ الاستطاعة المعتبرة شرعًا ليست هي مجردَ إمكانِ الفعل، وعدمِ العجز، بل إذا ترتب على الفعل مفسدَةٌ راجحة، وضَررٌ غير محتمل لم يكن المكلّفُ مستطيعًا.

لو أمر السلطانُ شخصًا أن يترك مدافعة الصائل عن نفسه لم تجب طاعته؛ لعظم الضرر في ذلك، أو أمره بتأدية مال لا بدّ له منه في حاجاته الأصلية لم يلزمه ذلك ما لم يُكره عليه

قال ابن تيمية: «فالشارعُ لا ينظر في الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل، بل ينظر إلى لوازم ذلك، فإذا كان الفعل ممكنًا مع المفسدة الراجحة لم تكن هذه استطاعةً شرعيةً، كالذي يقدر أن يحج مع ضرر يلحقه في بدنه أو ماله، أو يصلي قائمًا مع زيادة مرضه، أو يصوم الشهرين مع انقطاعه عن معيشته، ونحو ذلك»(٥).

فلو أمر السلطانُ شخصًا أن يترك مدافعة الصائل عن نفسه لم تجب طاعته؛ لعظم الضرر في ذلك، أو أمره بتأدية مال لا بدّ له منه في حاجاته الأصلية لم يلزمه ذلك ما لم يُكره عليه.

وبهذا يتبين أنّ طاعة ولي الأمر المسلم مقيدة بخمسة ضوابط وقيود، والضابط الأول لا بد منه في ثبوت أصل الطاعة، وهو أن يحكم بشريعة الله.

وأما في بقية الضوابط (وهي: ١. أن لا يأمر بمعصية، ٢. وأن يأمر بمقتضى العلم، ٣. أن يأمر بما يتعلق بالمصالح العامة، ٤. وأن يأمر بما يستطاع) فلا تسقط طاعة الإمام بالكلية، وإنما تُترك طاعتُه في خصوص القضية المعينة التي لم يتوفر فيها الضابط، ويبقى وجوبُ طاعته ثابتًا فيما عدا ذلك.

فظهر بذلك أنّ طاعة الحكام والسلاطين ليست مطلقة في الشريعة الإسلامية، ولا مقصودة لذاتها، وإنما أُمرت بها الشريعة لتكون عونًا لهم في تحقيق مقصود الإمامة، وجلب مصالح العباد، ودرء المفاسد عنهم، ومِن ثَمّ فإن وجوبها يَسقط في الحالات التي تخرج عن المقصد الذي شرعت مِن أجله.. والله الموفق.

(١) مجموع الفتاوى (٣/٢٤٠).
(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) واللفظ له.
(٣) أخرجه البخاري (٧٢٠٢)، ومسلم (١٨٦٧) واللفظ للبخاري.
(٤) أخرجه ابن حبان (١٠/٤٢٣).
(٥) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية (٣/٤٩).



قراءة في كتاب جذور البلاء.. للأستاذ عبدالله التلّ

أ. غسان أسود (*)

طغى اليهود في هذا العصر وأفسدوا في الأرض ما لم يُفسدوا في وقت سابق، فاحتلوا بلاد المسلمين، ودنَّسوا مقدساتهم، وزرعوا الفتن بينهم، ونشروا أنواع الكفر في العالم، وأشاعوا الرذيلة، وتغلغلوا في مفاصل الاقتصاد والإعلام والسياسة، وعاثوا في الأرض فسادًا، وكان من بين المسلمين مَن يمتنع عن نسبة هذا الإفساد لليهود، ويفرِّق بين اليهودية والصهيونية، وهذا الكتاب يوضح خطأ هذا التصور ويلقي الضوء على الجذور المظلمة لهذا البلاء والداء العضال

نبذة عن المؤلف:

عبد الله بن يوسف التل: ولد في الأردن عام ١٩١٨م، شغل منصب الحاكم العسكري للقدس وقائد القوات العربية فيها عام ١٩٤٨م، من الشخصيات البارزة التي لعبت دورًا محوريًا في الصراع مع الكيان الإسرائيلي والتصدِّي لمشروعه، من مؤلفاته: «كارثة فلسطين»، و«خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية»، توفي عام ١٩٧٣م[١].

وصف الكتاب :

يقع الكتاب في مقدمة وثمانية فصول، استغرقت ٢٨٠ صفحة من القطع المتوسط، والطبعة الأولى لدار الإرشاد في بيروت ١٩٧١م.

موضوعه:

يهدف الكتاب إلى الردِّ على مَن يحاول التفريق بين اليهودية والصهيونية -مع اختلاف الدوافع فيما بينهم- بتوضيح أنَّ التكوين الفكري والنفسي لليهود كان وبالًا على جميع الشعوب التي تعامل اليهود معها وأقاموا بينها، وذلك من خلال استعراض معتقداتهم الفاسدة، والتعريف بالتلمود، وعرض صفات اليهود النفسية، وعلاقتهم بغيرهم من الشعوب، وأهداف اليهود في السيطرة على العالم، والأسلحة التي استخدموها للوصول إلى هدفهم، والفتن والمؤامرات التي نشروها، وخططهم لغزو أفكار البلاد الإسلامية، والعقبات التي وقفت أمامهم، مبينًا تدبير الله تعالى لإنقاذ أهل الأرض من شرور اليهود، والنهضة بالأمم وأخلاقهم.

(*) إجازات قرآنية، مدرس في جمعية لتعليم القرآن الكريم.

(١) موقع الجزيرة نت.

> التكوين الفكري والنفسي لليهود كان وبالًا على جميع الشعوب التي تعامل اليهود معها وأقاموا بينها

القراءة في الكتاب:

الفصل الأول: الجذور في كتاب اليهود «المقدس»:

كتاب اليهود المقدس هو مجموعة أسفار مقسمة إلى ثلاثة أقسام: (التوراة، وأسفار الأنبياء، والكتب). فالتوراة هي الأسفار الخمسة المنسوبةُ لموسى عليه السلام: (التكوين، الخروج، اللاويون، العدد، التثنية)، وتشتمل أسفار الأنبياء على أسفار الأنبياء الذين جاؤوا بعد موسى عليه السلام، ومنهم: (يشوع، والقضاة) وغيرها. أما القسم الثالث: فهو حِكمٌ وآدابٌ ومزاميرٌ وأخبارٌ تاريخية.

وتمثِّل هذه الأسفار الأساسَ الأولَ للدين اليهودي، بينما يُمثِّل التلمودُ الأساسَ الثاني، ومن أعظم ما في التوراة من جذور البلاء ما يلي:

- **الوعود الكاذبة:** حيث يحفل كتابهم المقدَّس بوعودِ «الربِّ لإبراهيم ونسله أن يورثهم الأرض المقدسة» في عشرات المواضع، ولا يشكُّ قارئُها أنَّها من بثِّ حاخامات اليهود في أسفارهم التي جُمعت بعد قرونٍ عديدة من وفاة أنبيائهم، تلك الوعود التي تسبَّبت بالشقاء للعالم، وأورثت الإنسانيةَ على مرِّ العصور داءً عضالًا.

- **الكفر والتجديف على الله:** فدينُ اليهود الحالي المنبثق من التوراة المحرفة دينٌ عجيب، وإلههم جاهلٌ حينًا، وعالمٌ حينًا آخر، ضعيفٌ تارةً، وجبارٌ مرعبٌ تارةً أخرى، إلهٌ متعطشٌ لسفكِ الدماء وحرقِ شحومها.

يعتقدُ اليهودُ بإلهٍ خاصٍّ بهم يسمُّونه (يَهْوه)، أجرَوا عليه عمليةَ مسخٍ ليظهروا أنَّهم أقوى منه فيسيرُ معهم حسبَ أهوائهم. وتعاليم (يَهْوه) كانت على الدوام أساسًا لعادات اليهود الوحشية في ذبح غير اليهود وامتصاص دمائهم لاستخدامها في طقوسهم الدينية، و(يَهْوه) ظالمٌ حقودٌ، شرع قاعدة العقوبات المشتركة التي تأخذ البريء بجريرة المذنب – تعالى الله أن يكون كذلك! – كما حمل كتابهم الاعتراف بوجود آلهةٍ كثيرة.

- **العنصرية والتعصب والانعزال:** وضع اليهود في توراتهم جذور العنصرية والتعصُّب والانعزالية، إلى حدِّ حِرمان بقية الشعوب من الاتصال بـ (يَهْوه)، ورسَّخ في أنفسهم أنَّهم الشعب المختار.

طبَّق عزرا كاهن اليهود وجامع توراتهم تعاليم (يَهْوه) عمليًا، فحين عاد مع يهودِ السبي إلى أورشليم ووجد أنَّ اليهود قد تزوَّجوا من شعب فلسطين، أقدم على الفصل بين الأزواج اليهود وزوجاتهم الفلسطينيات وأطفالهم.

- **القسوة والهمجية:** صوَّر اليهود (يَهْوه) على أنَّه ربُّ الجنود ورجُلُ الحرب، إلهُ إسرائيل الظالم المتوحش، مما عزَّز في نفوسهم غريزة البطش والإرهاب. وجاء في الكتاب المقدَّس أنَّ (يَهْوه) يأمُرُ بقتل الذين يأكلون خبزًا خميرًا في أيامٍ حُرِّم فيها أكلُ الخمير، وبعد أن استراحت نفسُه واستمتع برؤية شعبه يَذبحُ بعضهم بعضًا، وجَّه إرادته بالانتقام للشعوب الأخرى، راسمًا خطةَ حربِ الإبادة ليضمن لشعبه الحبيب أرضًا بلا سكان، ووطنًا قوميًا لا منازع لهم فيه من السكان الأصليين.

- **الفسق والدعارة:** لم يكتسب الفسقُ والدعارةُ قداسةً كما اكتسبت في توراة اليهود المحرفة، ففي شِرعتهم تسجيلٌ لحوادثِ مضاجعة الأب الفاني السكِّير لابنتَيه، والاعتداء على زوجة الأب، وقصصِ زنى الأخ بأخته، واتِّهام الأنبياء بالزنى، وتصوير حياتهم على أنها فوضى جنسية.

- **الظلم والطغيان:** تُعدُّ التوراةُ أوَّل كتابٍ يُبيح قتلَ الأبرياء، وتُقرِّر العقوبات المشتركةً لمن لا ذنبَ له من البشر والحيوانات التي لا تعقل، وحين عَثَر اليهود على من يحتطبُ يوم السبت، لم يُرشدوه إلى تحريم العمل يوم السبت وإنما قتلوه، ولم يكتفوا بعقاب السارق بل قتلوا معه جميع أفراد أسرته!!

- **الغش والسرقة والطمع:** أباحت التوراة الغشَّ والسرقة والطمع، ونسبت هذه الصفات القبيحة إلى الأنبياء، وقد أحلَّ (يَهْوه) لشعبه سرقةَ غيرهم، ونظَّم لهم خُطةً نفعيةً يُحقِّقها على حساب الآخرين، و(اصطناع الثروة) من خلال الابتزاز بالرِّبا.



- **الرق والعبودية:** سبقت توراة اليهود في شرعنة الطبقية الاجتماعية ووضعِ أنظمة الرق والعبودية، فالشعب المختار في نظرها سيدٌ، وبقية الشعوب عبيدٌ يخدمون السادة إلى الأبد، وتُصوِّر التوراةُ يوسفَ عليه السلام مستغلًّا ماهرًا لفقر الشعب المصري، فيشتريه وأرضَه لحساب فرعون، بعد أن اشترى منهم الفضة والمواشي بالخبز الذي يدفع عنهم الموت.
- **الحقد والغدر مع الجحود ونكران الجميل:** ما أكثر دروس الحقد والمكر التي تسرُدُها التوراة ناسبةً أغلَبَها إلى أنبياء بني إسرائيل ومُلوكِهم وكهنتهم، فقد خدع أبناءُ يعقوب آلَ شكيم بحثِّهم على الختان لإكمال المصاهرة، ثم انقلبوا عليهم بعد إتمام عملية الاختتان وأبادوهم.

  وتُصوِّر التوراةُ داوودَ عليه السلام (أعظم أنبيائهم وملوكهم) حقودًا غدر بالشعب الفلسطيني الذي حماه وأكرمه يوم كان شريدًا طريدًا.
- **الغاية تبرِّر الوسيلة:** أباحت التوراة أن يصلَ الإنسانِ إلى غايته بأيةِ وسيلةٍ حتى لو كانت منافيةً للأخلاق، وقد أثبتت أنَّ الأنبياء طبَّقوا هذا المبدأ، فها هم يصوِّرون إبراهيم عليه السلام أنانيًا غايتُهُ أن يعيش ولو على حسابِ كرامته، وينسبون إليه التفريط في عِرضِه خوفًا على حياته.
- **الجبن والنفاق:** سجَّلت توراةُ اليهود على الشعب المختار جبنًا أصيلًا ونفاقًا فطريًا، فحين سحبهم موسى من مصر ورأوا المصريين مِن خلفهم دبَّ الرعبُ في نفوسهم، على الرغم من أنَّ عدد الجيش الذي كان مع موسى ويوشع باعتراف التوراة كبيرٌ وخيالي.
- **الاستغلال والسيطرة:** لا يكادُ قسمٌ من أقسام التوراة يخلو من بيانِ غريزة الاستغلال وحبِّ السيطرة الكامنة في نَفوس اليهود منذ أيامهم الأولى، حتى قبل أن تنهال عليهم الوعود الإلهية من (يَهْوه)، تلك الوعود التي ضاعفت من تلك الغريزة لتغدو شهوةً مسعورةً لا يمكن كبح جماحها، فاستغلال اليهود لغيرهم من الشعوب يعتبرونه حقًا قرره لهم ربهم.
- **الكذب:** الكذب عند اليهود من الأمور الشائعة التي يُصادفها القارئ في أغلب صفحات كتابهم المقدس، ويأخذ الكذبُ عندهم أشكالًا مختلفةً تصور نفسية اليهود وعقولهم التي تؤمن بالخرافات والسحر والشعوذة، كما تصور داوودَ كذوبًا لا يُخفي كذبَه حتى في مزاميره الدينية.

تُعدُّ التوراةُ أوَّل كتابٍ يُبيح قتلَ الأبرياء، وتُقرِّر العقوبات المشتركة لمن لا ذنبَ له من البشر والحيوانات التي لا تعقل، وحين عَثَر اليهود على من يحتطبُ يوم السبت، لم يُرشدوه إلى تحريم العمل يوم السبت وإنما قتلوه، ولم يكتفوا بعقاب السارق بل قتلوا معه جميع أفراد أسرته!!

الفصل الثاني: الجذور في التلمود:

يمثل التلمود شرح وتفسير علماء اليهود لكتابهم المقدَّس، وقد وُضع في فترة من فترات طغيان اليهود وكفرهم بأنبياء الله، وهو لذلك يحتوي على قدرٍ عظيم من جذور الشرِّ والبلاء.

نبذة تاريخية:

وُضع التلمود في العصر الروماني البيزنطي الذي امتد من سنة ٦٣ ق.م إلى الفتح الإسلامي، ففي أواخر القرن الأول الميلادي حاول اليهودُ الثورةَ على الرومان، لكنهم هُزموا سنة ٧٠ ميلادية وتشتتوا، فباتوا لا ملاذ لهم، فانتقل جمهور علمائهم إلى طبريا، وعملوا على إعادة بناء زعامةٍ دينيةٍ، ونظروا فوجدوا التوراة تنطوي على أحكامٍ مختلفة تحتاج إلى شرحٍ وتفسير، فبدؤوا بشرحه حتى تمَّ لهم ذلك سنة ٤٠٨ ميلادية، وسمِّيَ بالتلمود الأورشليمي، وبعد أن اضطُهد علماء اليهود زمن البيزنطيين، رحل قسمٌ كبيرٌ منهم إلى فارس وأقبلوا هناك على زيادة التوسُّع في التفسير ووضعوا تلمودًا جديدًا هو التلمود البابلي. ثم صارت الصولة والجولة للتلمود، لأنَّ فيه كلّ ما تشتهيه غرائز اليهود تحت ستار التوراة.

ينصبُّ سخطُ اليهود في التلمود على المسيحيين، فهم في نظرهم كفارٌ؛ دماؤهم وأموالهم وأعراضهم حلال، وغيرهم من بقية الشعوب من باب أولى، لا يشفقون عليهم ولا يقرضونهم إلا بالربا، والزنى بغير اليهود مباح

أهم التعاليم التلمودية:

يصفه واضعوه بالقدسية ويضفون عليه هالةً ربانية، ويبالغون في التحذير من السخرية منه والخطأ في حقه، مع أن عين قارئه لا تخطئ حجم الشتم والتنقص الذي يحتويه التلمود لإلههم، فهو يدرس ويحكم ويلعب ثم يتعلم التلمود!! أما الملائكة في التلمود فهي لا تفهم لغة اليهود، وآدم وحواء يتزوجان الشياطين وينجبان منهم الشياطين!!

ينصبُّ سخطُ اليهود في التلمود على المسيحيين، فهم في نظرهم كفارٌ؛ دماؤهم وأموالهم وأعراضهم حلال، وغيرهم من بقية الشعوب من باب أولى، لا يشفقون عليهم ولا يقرضونهم إلا بالربا، والزنى بغير اليهود مباح.

الفصل الثالث: عداء اليهود الأول للمسيحية والإسلام:

بدلًا من إيمان اليهود بالمسيح عليه السلام، ثم بنبوّة محمد ﷺ.. كفروا بهما، وحاولوا قتلهما، وحشدوا أفكارهم لعداء هاتين الديانتين، فشكّلت هذه النفسية جزءًا من الجذور.

١. عداؤهم للمسيحية:

بعد أن عمَّ الفسادُ وتفشت الرذيلةُ بين اليهود، وانحرفوا عن جادَّة الصواب، أرسل الله عيسى ابنَ مريم عليه السلام، ليُعيد للإنسانية كرامتها التي أُهدرت، فبدأ المسيح بعلاج ادِّعاء اليهود بأنَّ لهم الفضلَ على من سواهم، وأراد التخفيف من غطرستهم، وتعليمهم الحبَّ والتسامحَ وكرمَ الأخلاق، ومحاربة عبادةِ الذهبِ واحتكارِ عبادة الربّ. لكنهم لم يُصغوا لتعاليمه السامية، وأحسَّوا بالخطر يتهدَّد أنظمتهم وطُقوسهم العفنة، فشرعوا يخططون لقتله، وتآمر معهم يهوذا الإسخريوطي.

نُفِّذت عمليةُ الصلبِ بطريقةٍ بشعة، مارسوا خلالها فنون التعذيب، لكن الذي صُلِب وعُذِّب كان رجلًا يُشبه المسيح عليه السلام. وبعد المسيح لاقى الحواريون الذين حملوا رسالته أفظع أنواع الاضطهاد، وتعرض أتباعهم إلى أهوال يعجز القلم عن وصفها.

وفي الفترة التي كان اليهود فيها ضعفاء عاجزين عن الفتك بالنصارى، كانوا يلجؤون إلى الحرب الأدبية مستخدمين نفوذهم المالي لنشر الكتب التي تهاجمُ المسيحية وتتطاولُ على المسيح والسيدة العذراء عليهما السلام.



٢. عداؤهم للإسلام:

أرسل الله محمدًا عليه الصلاة والسلام لحمل الرسالة الإصلاحية الجديدة، وكان اليهود حينَها في شمال الحجاز، حيث عاشوا مع عرب الحجاز في صراع دائم، وبثّوا روح الشقاق بينهم.

ورغم أنَّ اليهودَ تحدثوا عن نبيٍّ يُبعث في الجزيرة العربية بصفاتٍ وردت في كتبهم، إلا أنهم لم يعترفوا بنبوته ﷺ حين بعثته، حيث رأوا أنَّه منافسٌ يوشِكُ أن ينتزع الزعامة الدينية التي كانوا يدَّعونها، فنظروا لمحمد ﷺ ودينه نظرة حَسدٍ وحقدٍ، وأخذوا يكيدون للإسلام والمسلمين، وإذا سُئلوا عن شيء ممَّا في كُتبهم حرفوا الكلم عن مواضعه، وتظاهر بعضهم بالإسلام لدسِّ الشكوك والرِّيَب وزعزعة عقيدة المسلمين وتشكيكهم بالإسلام.

وقد فضح القرآن الكريم أخلاق اليهود وأوضحها، من: الجُبن، والإجرام والقسوة، والكفر وقتل الأنبياء، والكذب والافتراء، والمكر والكيد، وأكل المال الحرام، والمكابرة ونقض العهود، والفحشاء والمنكر، وأكل الربا، والذلة والمسكنة والخزي، فكان طبيعيًا أن يقع الصدام مع المسلمين؛ لأنَّ الإسلام يدعو إلى مُثلٍ عُليا تتعارض مع أخلاق وقيم اليهود.

فضح القرآن الكريم أخلاق اليهود كالجُبن، والإجرام والقسوة، والكفر وقتل الأنبياء، والكذب والافتراء، والمكر والكيد، وأكل المال الحرام، والمكابرة ونقض العهود، والفحشاء والمنكر، وأكل الربا، والذلة والمسكنة والخزي، فكان طبيعيًا أن يقع الصدام مع المسلمين

الفصل الرابع: أسلحة التنفيذ:

اتَّخذ اليهود في نشر بلائهم وشرورهم في العالم أدوات وأسلحة كثيرة، أبرزها ما يأتي:

١. الماسونية:

وهي أخطر الجمعيات السرية، هدفُها القضاء على المسيحية والإسلام والمجتمعات الإنسانية تمهيدًا لتسلُّط اليهود على العالم، تدَّعي ظاهرًا ترقية العلوم، لكنها بؤرة فسادٍ ودعارةٍ، ولها صلاتٌ مع شيعٍ أخرى يهودية ونصرانية وإلحادية هدفها محاربةُ الأديان، فغَدَتْ نهرًا تصبُّ فيه جداولُ الحركات الشريرة جميعها.

في عام ١٧١٧م تأسس محفل بريطانيا الأعظم، وأطلقوا على أنفسهم اسم (البنائين الأحرار) بعد أن كانوا (القوة المستورة)، وجعلوا من أهداف الماسونية: الخدَّاعة الحريةَ والإخاءَ والمساواةَ.

وللماسونية مراحلُ ثلاث، يترقى فيها الأعضاء وفق شروط وتراتيب معينة، وقد تأسست لها المحافل في العالم حتى وصلت إلى عالمنا الإسلامي، وتدَّعي الماسونية أنَّها إنسانيةٌ شاملة، وأنها تُهادنُ الأديانَ جميعها، ولكنَّ هدف الماسون الأول فصلُ الدين عن التعليم ونشرُ العلمانية، وقد دأبت على تحطيم الأسرة لأنها أساس المجتمعات.

الصهيونية وجذورها:

وهي حركة سياسية عنصرية قديمة قدم اليهودية نفسها، تسعى إلى تحقيق آمال اليهود في تخريب دول العالم وقيام دولة اليهود، وتهدف إلى تجميع اليهود في فلسطين واستعادة الدولة اليهودية، وإعادة بناء هيكل سليمان وإقامة عرش داوود في القدس، وقد مرَّت الصهيونية خلال مسيرتها بالعديد من الأدوار، ظهر خلال كل دور العديدُ من الأفكار المنحرفة، ومنها ما كُتب له الاستمرار ومنها ما لم يكتب له النجاح.

وتاريخها يقسم إلى أربعة مراحل: (زمن التوراة، وما قبل هرتزل، والزمن المعاصر لهرتزل، والزمن التالي لوعد بلفور)، وكانت قد خمدت في القرون الوسطى نتيجة إدراك أوروبا لخطورة الفكر اليهودي، ثم في عصر التسامح النسبي في القرن الثامن عشر تشجَّع اليهود على إظهار نواياهم الخبيثة لتخريب العالم ثم الحكم على أنقاضه.

الصهيونية الحديثة:

تنسب لتيودور هرتزل، حيث حضر محاكمة الضابط اليهودي الفرنسي (دريفوس) الذي كان متهمًا بخيانة الجيش الفرنسي لصالح الألمان، فأحس هرتزل بالاضطهاد الذي يلاقيه اليهود، فنادى بضرورة نصرة اليهود وتخليصهم من الظلم والعبودية، فاستقبل اليهود مشروعه بحماسة شديدة، ثم تجوَّل هرتزل في العديد من العواصم يروِّجُ لفكرته، حتى اتصل بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني رحمه الله، وقدم له المغريات مقابل منح اليهود حقَّ استيطان فلسطين، لكن السلطان ردَّه. ومن أهم الأعمال التي أنجزها هرتزل قبل وفاته:

- جمع زعماء المنظمات اليهودية في أول مؤتمر صهيوني عالمي سنة ١٨٧٩م.
- صهر الكتل اليهودية المتناحرة والمتباينة في أهدافها وخططها.
- جمع حكماء صهيون الذين صدر عنهم أخطر البروتوكولات في تاريخ العالم.

جمعيات أخرى:

مثل «بناي برث» و «شهود يَهْوَه» و «الروتاري» و «اللاسامية» وجميعها سارت على خطى الماسونية والصهيونية في خدمة اليهود للسيطرة على العالم.

الفصل الخامس: الفتن والمؤامرات:

النفسية التآمرية لدى اليهود حدت بالكثير منهم إلى ادِّعاء الدخول في الإسلام لبثِّ السموم بين المسلمين وزرع الفتن بينهم، مستغلِّين رِفعةَ الأخلاق العربية الإسلامية وتسامُح المسلمين مع من يُبدي لهم حسن النية.

تشعَّب عن مؤامرات اليهود عددٌ من الحركات الهدّامة التي أسهمت في إضعاف المسلمين، وكان من أخطرها «الإسماعيلية» التي أسسها عبد الله بن ميمون القداح، وأنجبت «الإسماعيلية» حركة «القرامطة» في البحرين والعراق واليمن وفارس، والتي قامت لهدم الخلافة العباسية، وألغت شعائر الإسلام من صلاة وصوم وزكاة.

واستمرت فتن اليهود حتى نشوء «الدولة الفاطمية» التي أسّسها اليهودي عبيد الله المهدي في المغرب، ولولا عوامل القوة الكامنة في الإسلام لاستطاع اليهود بدسائسهم ومكرهم تحطيمه ولما يزال في مهده.

> **يستخدم اليهود الجنس لاسترداد أموال العالم التي يعتقدون أنها لهم، وللحصول على أسرارٍ ومعلوماتٍ من الشخصيات الكبيرة وأصحاب النفوذ في العالم، ولهدم النظام الأسري؛ فانحلّت الأسرة في الغرب بشكل مخيف، وارتفع عدد الجرائم والتفسُّخ الخلقي في أنحاء كثيرةٍ من العالم**

الفصل السادس: طرق التدمير في المجتمعات غير اليهودية:

عمِل اليهود على تدمير مقوِّمات الأمم والشعوب تمهيدًا للاستيلاء على أوطانهم، وأُولى تلك الطرق هي هدم الدين عن طريق الهجوم على رجال الدين

جذور البلاء في الكتاب المقدس لليهود



للنيل منهم وتحقيرهم أمام الجيل الصاعد، كما يلجأ اليهود إلى طرقٍ عديدةٍ، كان أشدها خطرًا:

١. **الجنس:** ويستخدمه اليهود لاسترداد أموال العالم التي يعتقدون أنها لهم، وللحصول على أسرارٍ ومعلوماتٍ من الشخصيات الكبيرة وأصحابِ النفوذ في العالم، ولهدم النظام الأسري؛ فانحلَّت الأسرة بشكل مخيف، وارتفع عدد الجرائم والتفسُّخ الخلقي في أنحاء كثيرةٍ من العالم.

٢. **الشذوذ الجنسي:** نشر اليهود هذا الوباء في العالم ولا سيَّما بعد الحرب العالمية الثانية، وأُيد ذلك من قبل عددٍ كبيرٍ مذهلٍ من رجال الدين، وطلبة الجامعاتِ البريطانية، فاستطاعت اليهودية هزيمة الفضيلة في أوروبا وأمريكا.

٣. **الأدب والفن:** استطاع اليهود السيطرة على صناعة السينما في العالم، فلا تسمح بإخراجِ أيِّ فيلمٍ لا يخدم أهداف اليهود من زاويةٍ معيَّنة، وتمكَّنوا من الإشراف على المسارح والملاهي، ويتَّخذون حيَلًا لإبعاد الشُبَهِ عنهم كاستئجار مؤلِّفين من غير اليهود ممن يتمتَّعون بشُهرةٍ واسعةٍ في عالم الأدب والتأليف، كما أنهم سيطروا على صحافة العالم، وينشرون عن طريقها التفسُّخ والانحلال في المجتمعات غير اليهودية.

٤. **النصب والرشوة والسرقة:** أوجد اليهود في العالم مدرسة النصب والرشوة والسرقة والاحتيال، ثم استعرت في نفوسهم حُمَّى الحقد والحسد والكراهية للناس كافة، فجاءت كتبهم وتعاليم حكمائهم تشجع على الغش والسرقة والنصب واستحلال دم غير اليهود وأموالهم وأعراضهم.

الفصل السابع: الغزو الفكري:

أدركت أممُ الغرب أن الإسلام هو العقبة الكبرى في طريق الاستعمار وفي طريق اليهودية العالمية، وأنَّ الغزو العسكريَّ لديار المسلمين مُخفقٌ مهما طال الزمن، إذا لم يكن مصحوبًا بغزوٍ فكري يزلزل عوامل القوة الكامنة في الإسلام، فشَرعوا في تدبير الخطط للقضاء على مقوِّمات الأمة الإسلامية، فقرروا دراسة الإسلام وتاريخِه وآدابِه وفنونِه، فكانت حركة الاستشراق التي أخذت صورة البحث العلمي الأكاديمي الخادع، والتبشير الذي يعمل في التعليم الأولي مِن دور الحضانة ورياض الأطفال إلى المراحل المتقدمة، والطعن بنبي الإسلام وتشويه تاريخه، وإثارة الفتن بين الطوائف الإسلامية،

ومحاربة اللغة العربية ممثلة بالقرآن الكريم، وتشويه فكر الشباب ليعجب بمدنية الغرب.

مكمن الخطر في أنظار المستشرقين والمبشرين:

أدرك المستشرقون والمبشرون أن الإسلام يهدد أوروبا ويقف سدًا منيعًا في وجه انتشار المسيحية، وأن قوته الكامنة أخضعت البلاد التي كانت خاضعة للنصرانية، ومَكْمَنُ الخطر في نظرهم يتمثل في القرآن الكريم ومكة المكرمة، والجهاد وقدرة الإسلام على التوسُّع والإخضاع.

أهدافهم الأساسية:

هدف المستشرقون والمبشرون إلى هدم الإسلام وتنصير المسلمين، ومع إدراكهم استحالة ارتداد المسلم عن دينه؛ عملوا على زعزعة عقيدة المسلمين ليسهل عليهم إخضاعهم وهزيمتهم، وكانت أبرز أدواتهم ما يلي:

- إلحاق المسلمين بالمدارس العلمانية التي تساعد في القضاء على الروح الإسلامية للطلاب.
- الفصل بين الإسلام والتعاليم الإسلامية وبين الحياة المادية التطبيقية.
- العمل بصمت على انتزاع شجرة الوحدة الإسلامية، وغرس شجرة صناعية بدلًا عنها تمتد جذورها إلى منابع المدنية الصليبية اليهودية.

وسائلهم لتحقيق أهدافهم:

١. **تشويه الإسلام ونبي الإسلام:** بمهاجمة القرآن واتهامه بالتناقض وعدم وضوح التوحيد فيه، والتشكيك بنسب الرسول ﷺ. وطعنهم بعدد من أحكام الإسلام، وتشويه صورة التاريخ الإسلامي.

٢. **تسخير التعليم والطب:** لنشر تعاليمهم الفاسدة، وملئها بالسموم والمطاعن على الإسلام وتاريخه، كما تصدَّر المستشرقون من اليهود لتدريس التاريخ الإسلامي وتخريج أعدادٍ كبيرةٍ من المسلمين ليعودوا إلى أوطانهم صورًا مشابهةً للمستشرقين، إلا أنهم أكثر خطورة.

أما هيئات التبشير فقد قامت بفتح المدارس التبشيرية في قلب الديار الإسلامية للتأثير على فطرتهم قبل أن تنمو عقولهم ويتشبعوا بالتعاليم الإسلامية، كما أنها استغلت آلام الناس فأكثرت من الإرساليات الطبية المجانية وهدفها الأول هو التبشير.

٣. **المؤتمرات التبشيرية:** لتداول المنجز من الأعمال التبشيرية التي سبقت كل مؤتمر، ودراسة النجاح والفشل، ووضع الخطط على ضوء تلك الدراسات.

٤. **الكتب والصحف والنشرات:** التي استخدموها لبثِّ دعاياتهم المضلِّلة ضد الإسلام والمسلمين، ولنشر الفساد والخلاعة بين صفوف الشباب المسلم عن طريق المقالات الإباحية والكتب الجنسية والمجلات الخليعة.

> **لم يبدأ الرسول ﷺ الجهاد إلا بعد أن استكمل عُدَّته واطمأنَّ إلى رسوخ الإيمان في قلوب الصحابة رضوان الله عليهم، فاستطاع الإسلام أن يحوِّل نفوسَ المسلمين إلى نفوسٍ مثالية خارقة في البذل والتضحية والفداء، وحقَّق بهذه النفوس عن طريق الجهاد المعجزات الحربية الخالدة**

الفصل الثامن: استراتيجية السماء:

نظر الله جلَّ وعلا في جميع أهل الأرض فوجد العربَ أجدر الأمم على حمل راية الإسلام، لما يتَّصفون به من صفات جعلتهم ندًا قويًا للطبيعة القاسية، فبعث الله رسوله محمدًا ﷺ من قلب الجزيرة العربية، ليُحوِّل تلك الطاقات البشرية إلى قوى تسخَّر لخدمة الإنسانية، وتسلك طريق الجهاد وتنظم أموره معتمدًا على دعائم خمس هي:

١. **التبرير والأمر:** فقد سلك النبيُّ ﷺ طريق الجهاد لدفع الأذى والظلم عن المسلمين، ودفاعًا عن دين الله، وعن الضعفاء والمساكين، وعن العِرض والمال والوطن، وردعًا لعصبية الكفر والشرك والظلم والفساد.

٢. **الروح المعنوية:** التي تجعل المجاهدين يُقْدِمون على الموت بشجاعة ورغبة صادقة.

٣. **مقومات الثبات:** من أهمها التشجيع والوعد بالجنة والنعيم، والتأنيب والوعيد بالحساب والعذاب.

استراتيجية الإسلام في الجهاد



٤. **الإعداد المادي:** وتتضمن إعداد الوسائل الحربية التي تكفل التغلب على الأعداء ورد كيدهم في نحورهم.

٥. **الأخلاق:** فقد أمر القرآن الكريم أن يحافظ المسلمون في جهادهم وحربهم على فروسيتهم الموروثة، فلا يفتكون بغير المحاربين كالنساء والأطفال والشيوخ.

التطبيق العملي:

لم يبدأ الرسول ﷺ الجهاد إلا بعد أن استكمل عُدَّته واطمأنَّ إلى رسوخ الإيمان في قلوب الصحابة رضوان الله عليهم، فاستطاع الإسلام أن يحوِّل نفوسَ المسلمين إلى نفوسٍ مثالية خارقة في البذل والتضحية والفداء، وحقَّق بهذه النفوس عن طريقِ الجهاد المعجزات الحربية الخالدة، فهدموا عرش كسرى، وزلزلوا غطرسة الروم بفئات قليلة، وعندما تغيَّرت نفوس المسلمين وتعلقت بالدنيا ومغرياتها كانت الهزائم رغم قوتهم المادية وكثرتهم البشرية كما هو الحال في بلاط الشهداء.

بطلان فرية:

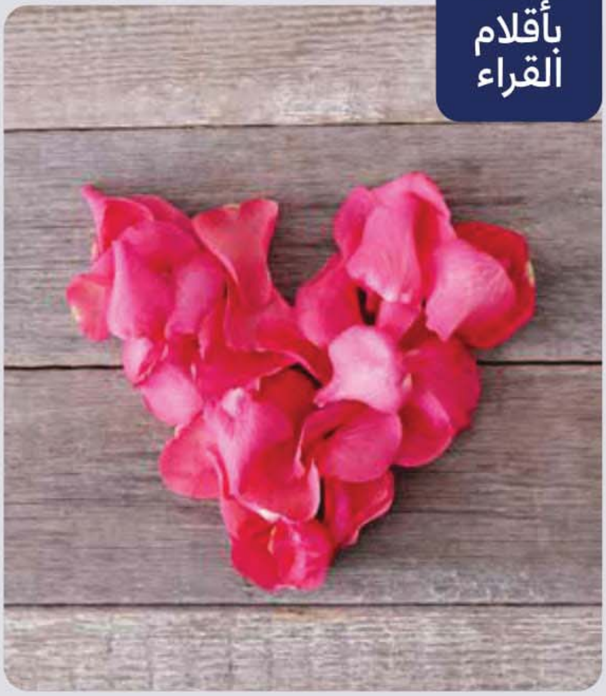
فسَّر المستشرقون والمبشرون ظهور الإسلام أنه حركةٌ فرضتها ظروف الجزيرة العربية الاقتصادية، وافتروا على تاريخ الجهاد ناسبين إليه أطماعًا اقتصادية، لكنهم تجاهلوا المَدَنية الإسلامية التي عمَّت أرجاء الكرة الأرضية، فنتج عنها خيرٌ وعمرانٌ وثراء وتقدُّمٌ علميٌّ.

ويُكمل المبشرون والمستشرقون اليهود فريتهم بادِّعائهم أنَّ الإسلامِ دينُ السيف يُجبر الناس على الدخول فيه، لكنَّه والله دين الحرية والسلام والتسامح، ولم يُكره المسلمون أحدًا على ترك دينه، بل اعترف مؤرخو الغرب المنصفون بالفَرق الشاسع بين حروب الإسلام وحروب الغرب المسيحي، الذين كانوا يتفننون بتعذيب من تحت أيديهم.

إنَّ الأمر ليس متعلقًا بالمنطق والتاريخ والوقائع، وإنما هو التخطيط الصليبي اليهودي، لتشويه معاني الجهاد الإسلامي.

وفي الختام:

وبعد هذه الجولة المختصرة في هذا الكتاب يتَّضح خطأ من يروم التفريق بين الصهيونية واليهودية؛ فيعتبر الصهيونية حركةً سياسية، ويَنسِب إليها الاحتلال والقتل والتدمير والإفساد في الأرض، ويبرِّئ اليهوديةَ من الرزايا والشرور وينظر إليهم نظرةً مسالمةً بحجة وجود أفرادٍ أو جماعات من اليهود هنا أو هناك مناوئين للحركة الصهيونية، متناسيًا أن جذور البلاء ضاربة في أعماق دين اليهود وكتابهم المقدس وتاريخهم القديم والحديث.



أمي.. نبضة قلبي.. دفق دمي

شعر: أ.عبدالمجيد بدوي

كثيرةٌ هي النجوم التي تبدو بعد غياب الشفق،
أمّا التي تظهر قبل غيابه فلامعةٌ نادرة.

أماه يا نجمة تبدو مع الشفقِ
أماه يا منجمًا للرفق والشفقِ

ماذا عساه يخطُّ الحبر في ورقي
عن دَقّةِ القلب فيها رِقّةٌ ورُقي

كالشمس تبدو لكل الناس تُسعدهم
هل تُنكَرُ الشمسُ إذ تبدو على الأفقِ

أوصى بها اللهُ إحسانًا ومرحمةً
ولا تقُلْ لهما أفٍّ على نزقِ

إذا مرضتَ فعينُ الناس نائمةٌ
وعينُ أمكَ قد باتت على أرقِ

لكم عُنِيتِ بنا كلَّ العناية إذ
كُنّا صِغارًا ضعافَ الجسم في الخِرقِ

حَمْل على وَهَنٍ، وَضْع على وَهَن
رضاعةٌ أوهنت عظمًا لها ونَقي

مشقةٌ عند رب العرش أُجرَتُها
ومن سيُنكرها فليس غيرَ شقي

ومن سيكفرها فلا رأى فرحًا
ومن سيشكرها فصالحٌ وتقي

مقبِّلًا قدَمًا ذُلًّا وناصيةً
وراغبًا في دعاء منكِ في غسقِ

أعينوا إخوانكم على حسن الظن بكم

أ. محمد خير الحراكي

إنَّه منهجٌ نبويٌّ وسموٌّ أخلاقي، أن يكون المسلمُ حريصًا على إخوانه من أن يقذفَ الشيطان شيئًا في قلوبهم، وذلك بتوضيح وبيان كلِّ ما يؤدّي الى ذلك، وهذا يرفعُ العبدَ عند الله ويحبِّبُهُ إلى الناس، فكثيرًا ما يصدُر من الشخص تصرُّفٌ أو لفظٌ ربما يُريد به خيرًا أو لا يقصد به أذيةَ أحد، ولكن في سياق يُفهمُ منه العكس، وهنا ينبغي عليه أن يُعين مَن حولَه على حملِ ذلك على مَحمل حسن، فهذا رسول الله ﷺ يسيرُ مع زوجته صفيّة فيمرُّ رجلان من الأنصار، فيقول عليه الصلاة والسلام: (على رسلكما إنَّها صفية بنت حُيَي) فقالا: سبحان الله! يا رسول الله! فقال: (إنَّ الشيطان يجري من الإنسانِ مجرى الدَّم، وإني خَشيتُ أن يَقذِف في قُلوبكمَا شيئًا) متفق عليه.

هذا درسٌ للأمة كلها بأنْ يكون الإنسانُ رحيمًا بمن حولَه ولا يكون عونًا للشيطان عليهم من حيثُ لا يشعر، وهذا في كلِّ الأمور وبين الجميع، بين الأبِ وأبنائه، أو الزوج وزوجته، أو الجارِ مع جيرانه، أو الإنسانِ مع زملائه، أو من يعملون معه في أيِّ مجالٍ من المجالات، ومع هذا ينبغي على الآخرين أن يحملوا تصرُّفات بعضِهم على حسنِ الظن ما احتمله ذلك الفعل.



عَظمة الله تعالى

أ. محمد زهري النشيواتي

﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

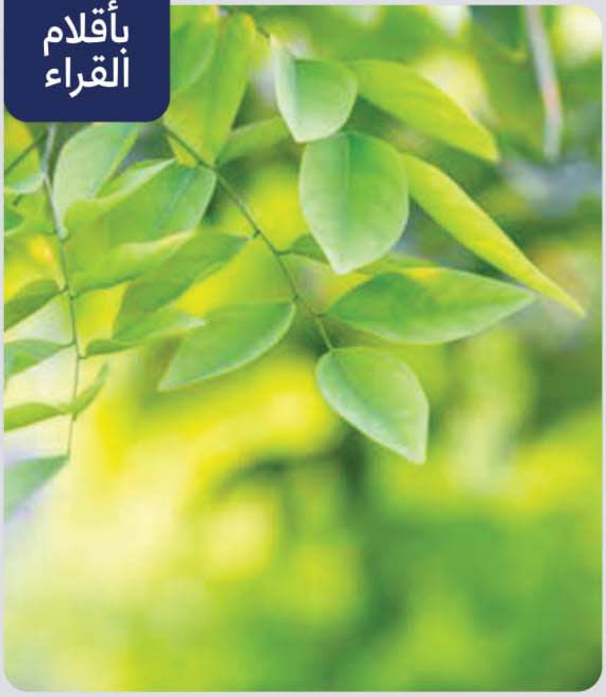
من أسماء الله تعالى الحسنى: اسم (العظيم)، ومن صفاته العُلى: صفةُ العظمة؛ فهو العظيم الذي خضع كلُّ شيءٍ لأمره، ودانَ لحُكمه، والكلُّ تحت سلطانه وقهره، وهو ذو العظمة الذي كلُّ شيءٍ دونه فلا شيءَ أعظمَ منه ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

علمَ ملائكتُه المقرَّبون عظمتَه فخافوه وعظَّموه وسبَّحوا، ولم يستنكفوا عن عبادته ولم يستكبروا.

وعلِمت الرُّسُل عليهم السلام عَظَمَةَ العظيم؛ فنصبوا في عبادته ودعَوا أقوامَهم إلى خشيته، وخوَّفوهم من نقمته، فأوَّلُهُم نوحٌ عليه السلام قال لقومه: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، وخاتمهم وأفضلهم محمدٌ ﷺ خاطبه ربُّه عز وجل فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

والمؤمنون بربِّهم، يُدركون عَظَمته، فيُقرُّون برُبوبيته، ويخضعون لألوهيته، ويُخلصون في عبادته، يتأمَّلون آياته، ويتفكَّرون في مخلوقاته، فتخشعُ قلوبهم، وتقشعرُّ أجسادهم، وتفيضُ بالدمع أعينهم؛ إجلالًا لله تعالى وتعظيمًا وإخلاصًا، وتَلهجُ ألسنتهم بذكره عزَّ وجلَّ وتسبيحِه وتكبيره وحمدِهِ قائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.





ورق أخضر

أ. مروان الخالد

تحاكي لغتُنا العربية المعطاءة شجرةً عظيمةً طيبة المنبت، أصلُها القديم ثابت، وفرعها المتجدد ممتد في السماء بورقه الأخضر الثري الذي يدهشنا مع كل جذر لغوي، فالسين والفاء والراء مثلًا: أصلٌ يدلُّ على الانكشاف والجلاء.

سافر الرجل: أي انكشف عن مكانه، وأسفر الصبح: بان وظهر، وأوراق الشجر المتساقطة تسمى سفيرًا لأن الرياح تسفرها أي تكنسها وتكشفها عن مكانها، والمِسْفرة: المكنسة لأنها تسفر البيت أي تكنسه، والسُّفارَةُ: الكُناسةُ التي تجمعها بها.

والسفير: رسولُ يصلح بين القوم، سَفَرْتُ بين القوم أي أصلحْتُ بينهم، وكشفتُ ما كان بينهم من عداوة.

وَمَا أَدَعُ السِّـفَارَةَ بَيـنَ قَـوْمي
وَمَـا أَمْشِي بِغِشّ إِنْ مَشِـيتُ

أي: لا أترك الإصلاح.

والمرأة عندما تكشف عن وجهها فهي: سافِرٌ.

والملائكة الكتبة سفرةٌ ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾؛ لأن الكتابة تكشف عما يحتاج إليه من المكتوب. والسافِرُ: الكاتب؛ لأنه يبين الشيء ويوضحه.

وأما السُّفرةَ فهي طعام المسافر في الأصل ثم أطلقت على الجلدة التي يأكلون عليها.

وتنسَون أنفُسَكم

د.خير الله طالب

ترنُّ كلمته في الأذن منذ عشرين عامًا وهو يُلقي موعظته المتواضعة قائلًا: (إذا سمعتَ موعظةً فتوجّه بها إلى نفسك فقط ناسيًا غيرك).

ويسرحُ الخيال في فهم ما وراء هذه الكلمة ليجدَ الشيطانَ يجلب على المرء مواقف صوابه ليصرفه عن تذكر أخطائه عند سماع الموعظة، فإذا تذكّر شيئًا من أخطائه أوهمه بأنه قد أصلح خطأه بوعظ الآخرين في ذات المسألة، وأنه أدّى ما عليه، بل ربما قسى عليهم ظنًا منه أنّه بذلك يعوِّض عن تصحيح خطئه دون وعي، فيكون قد نسي نفسَه مما يأمُرُ به غيره: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وللخروج من هذا المأزق ثمة حاجةٌ إلى معرفة أسباب نسيان النفس في واقعنا اليوم، وما يُعين على تذكّرها.

كيف ننسى أنفسنا؟

- الخلطُ بين القول والفعل، مع تضخيم القيل وشأن اللسان والخطابة، خاصة مع العجز عن الفعل، أو الكسل عنه لاسترواح النفس للأسهل.
- إجهاد النفس بتحميلها فوق طاقتها من واجبات التعليم والدعوة على حساب وقتها الخاص للعمل، مع اختلاط ذلك أحيانًا بأوهام العمل؛ مثل (ولولة) المجالس ومنابر التغريد حول الأوضاع التي اكتفى اليائسون فيها بالندب والشكوى.
- تغليب التنظير على التطبيق في التعامل مع العلوم الشرعية والإنسانية وتعليمها، مما يجعل المتعلم والدارس قوّالًا أكثر منه فعّالًا في واقعنا المعاصر، في مقابل العناية التطبيقية بعلوم الطبيعة ودقة توظيفها في تحقيق المتعة المادية، على حساب علوم السعادة والعمران والنهضة الحقيقية.
- ولا ننكر آلام الشدائد المسببة لـ (الإسقاط النفسي) حيث يصبُّ الإنسان غضبه من نفسه وواقعه على غيره، ثم ينعم في لذة النسيان المريح إلى حين غضبة أخرى على ضحية جديدة.

فإذا ما أردنا تذكُّر أنفسنا، فإننا سنجده في:

إعطاء النفس فرصة العمل الواجب في وقته، مع الاستعانة على ذلك بكلِّ ما يُيسِّر العمل والإنجاز، ولن نجد مثل الصلاة المغذِّية للصبر، والمذكورة في الآية التالية مباشرة للآية التي تحذِّر من نسيان النفس: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٤-٤٥].

وقبل انبعاثنا لتعليم الآخرين وتوجيههم، نحتاج أن نتعلَّم التوجيه بالفعل (القدوة)، التي تُثبِّت العلم، وتُباركه، وتزيد صاحبه علمًا جديدًا (العلم التطبيقي المواكب لاحتياجات الحياة).

أيضًا فإن تطبيق ما تعلَّمناه عمليًا هو التحضير الحقيقي للدروس قبل إلقائها، والطريق الأسرع إلى القلوب؛ لأن الشخص أمام تقصيره حينئذ كالنائحة الثكلى، لا المستأجرة. وقديمًا قالت العرب: «ويل للشجيِّ من الخليِّ»[١]. وهنا تتضاءل الحاجة إلى كثير الكلام، ولذا كان خير المعلِّمين ﷺ: (يُحَدِّثُ حَدِيثًا لو عَدهُ العَادُّ لَأحصاهُ)[٢].

لن نجد لتذكُّر أنفسنا بدايةً أولى من تصحيح النية في كلِّ ما نتعلَّم ونقرأ ونكتب، بأن تكون النية رفعَ الجهل عن النفس أولاً، ثم العمل به، لا أن نكتفي برفع الجهل عن غيرنا، ولا أن يعمل غيرنا، فذلك نتيجة طبيعية لنيتنا واستهدائنا الذي نرفعه في كل ركعة خائفين من اتِّباع صراط المغضوب عليهم؛ لأنهم تركوا العمل بما تعلَّموه. وسنرى ذلك باعثًا على مزيد التعلم والتعليم والجهد التربوي والنشاط الدعوي، بجودة أفضل ومراقبة أدق وتصحيح أدوم، دونما يأسٍ أو توقُّف، بإذن المعبود الجليل.



(١) يقال للشخص الخليِّ العاطل المشتغل بنقد العاملين أصحاب الشجوى.
(٢) كما تقول عائشة رضي الله عنها، أخرجه البخاري (٣٥٦٧) ومسلم (٢٤٩٣).

من إصداراتنا في السياسة الشرعية



أكاديمية
تأصيل الوعي

بعد نجاح انطلاق الدفعة الأولى لدبلوم فقه الخلاف
والحوار والعمل المشترك

تعلن

أكاديمية تأصيل الوعي

عن إطلاق الدفعة الثانية
في شهر ربيع الثاني ١٤٤٢هـ

